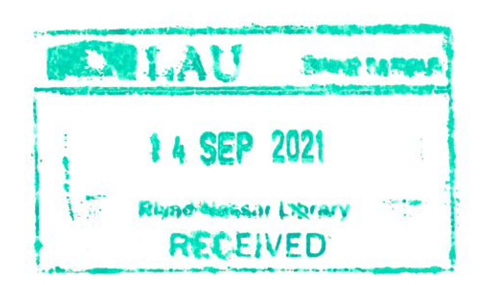
الإعتدال إن حكى



الاعتدال إن حكى



الاعتدال إن حكى

لم يعد الاعتدال ميزة يتباهى بها مجتمع أو بلد أو جماعة وحسب. صار ضرورة حيوية وسلاحاً في وجه نوبات التطرّف والغلو التي تعصف بعالمنا، وبشكل أكثر إيلاماً بمنطقتنا، في هذه المرحلة المضطربة من التاريخ، فتتّخذ شكل الإرهاب هنا وهناك.

حتى لبنان، الذي حفلت مسيرته التاريخية بميزة الاعتدال، تشظّى بفعل تزاحم العقليات الإلغائية، فكان التطرف الذي استجلب الآخر، حتى صار اللبنانيون أسرى بين إرهابيَن، الأول تدخّل في سوريا ضد شعبها الثائر، والارهاب الثاني قبل دعوة الأول الى الاقتتال لكنه اختار ميدان المعركة الذي يعجبه، فآثر نقلها الى لبنان مصدّراً الموت والرعب الى مناطق بعينها، ومن خلالها الى البلد ككل.

في زمن تزدحم فيه الأسئلة الوجودية الراهنة والمستقبلية، ويفتتح فيه زمن العدالة بدءاً من انطلاق قطار المحكمة الدولية في لاهاي، يطرح زمن الاعتدال نفسه أكثر من أي وقت مضى على أنه صنو العدالة، وقرينتها، وأنه الاحتكام الى جملة أخلاقيات في العمل السياسي، والانطلاق من خلفية ثقافية تكرّس التعدد والاتزان.

"الاعتدال إن حكى" ملف نشرته جريدة "المستقبل" على حلقات لإعادة تسليط الضوء على أهمية الاعتدال كواحد من أهم مرجعيات النظام اللبناني والعيش بين اللبنانيين منذ الاستقلال حتى اليوم.

"الاعتدال إن حكى" ملف ناقشته مجموعة من المثقفين اللبنانيين والعرب مع مراجعة لجذور هذا الاعتدال وطاقته الاستثنائية التي ميّزت المجتمع اللبناني بكل طوائفه وتقاليده وعاداته، وكذلك ميثاقه الوطني ووثائق الحوار المتتالية وصولاً الى اتفاق الطائف والارشاد الرسولي.

◀ وسام سعادة

تقديم

* الاعتدال ليس ضعفاً ولا يُردّ على التطرّف بالتطرّف

"الاعتدال" كلمة عادة ما تُستحسن في وجه الغلوّ والتطرّف. لكنها تتهَمُ في حيويتها.

أساساً كلمة "الاعتدال" بحد ذاتها تحوي نقطة قوّة ونقطة ضعف.

أمّا عن نقطة الضعف فهي حين يتبدّى "الاعتدال" بمظهر "الفاتر" بين السخونة والبرودة، و"الغامض" أو "الملتبس" بين وضوحين قصويين.

أمّا عن نقطة القوة فهي حين تعاد الكلمة إلى جذرها "عَدَلَ"، كمثل قولنا "عَدَلَ عن الطريق" أي حاد عنها، و"عدَل إليه"، أي رجعَ. هو جذر حركيّ بإمتياز، وعنه اشتقّ "العدل" وهو بحسب معاجم العرب الأساسية "ما قام في النفوس على أنّه مستقيم وهو ضد الجور"، ومن التعاريف أنّ "العدل هو الذي لم تظهر منه ريبة"، أي يرضى الناس بالإحتكام إليه ويرضون بتحكيمه في ما بينهم.

باستعادة القربى الإشتقاقية بين "الاعتدال" وبين "العدل" أو "العدالة" تعود نقطة الضعف نفسها لتصبح نقطة قوّة:

فالاعتدال هو انتصاف بين المتطرّفين، إنّما بغرض تحقيق الإستقامة وتوسّع نطاقها. يمكن طبعاً أن يكون الاعتدال توفيقياً، ووسطياً أنى دعت الحاجة، لكن يمكنه أن يكون أيضاً جذرياً، وبرنامجياً، بل هو يكتسب كل صفاته حين يكون كذلك:

انتصاف بين المتطرفين وعدم وقوع في حبائل الغلو أياً كان نوعها، انما هو الاتزان من أجل اعداد العدّة لفرض معادلة الإنصاف والعدل، وهذا يعني بالدرجة الأولى لبنانياً، أن لا تستبد جماعة أهلية بأخرى، وأن لا تنكر الواحدة حق الجماعة الأخرى في الوجود الحرّ والعيش الكريم والمشاركة السياسية والإسهام في صنع الذاكرة الوطنية المشتركة، وأن لا تجنح الواحدة لانتحال صفة المتكلم بلسان الجماعة الأخرى، أو أن تهضم حق غيرها في التمايز والمشاركة بحجة أنها أعلم من الفئة الأخرى بمصلحتها.

والحال ان قسماً أساسياً من المشكلة مع "حزب الله" تكمن هنا، فهو ان كان لا ينكر التعددية اللبنانية بشكل مباشر، الا انه يتعامل مع الجماعات اللبنانية الأخرى على أنه أعرف منها بمصالحها هي، ويسعى جاهداً، ويائساً بالنتيجة، إلى فرض ارادته الانتدابية الوصائية على بقية الطوائف، مرة باسم "الوحدة الاسلامية" لفرض معادلته على السنّة، ومرة باسم "تحالف الاقليات" لفرض معادلته على المسيحيين والدروز والعلويين.

في المقابل، الاعتدال في نطاقه اللبناني لا يمكنه أن يعني أقلّ من التأسيس على الطبيعة الثنائية المسيحية – الاسلامية لهذا الكيان، وعلى كل ما من شأنه ابعاد اللبنانيين عن تكفير بعضهم بعضاً، أو "تنجيس" بعضهم بعضاً، أو ادعاء تمثيل طائفة منهم لطائفة أخرى، أو مسعى عزل كل طائفة على حدة، الأمر الذي يؤدي حينذاك إلى استبداد كل جماعة بأفرادها. الاعتدال هو الموازنة بين حقوق الأفراد وحقوق الجماعات، وفيما بين الجماعات، وهو الكيانية الميثاقية المتصالحة تماماً مع تعدديتها الذاتية وتمايزها المنتمي إلى محيطها، والتي تتفاعل فيه تحديداً مع كل من يقدّر لهذا التمايز اللبنانيّ حقّ قدره سياسياً وثقافياً واقتصادياً في المحيط العربي، اذ ليس الفيصل هنا ان يبحث أهل الاعتدال اللبناني عمّن يماثلهم في أفكارهم ومعاشهم من ضمن هذا المحيط، بل عمّن تنسجم مصلحته ومصلحتهم في الحفاظ على هذا الكيان – الرئة، الذي ان كان يلزم الاحتراس من النزعات الشوفينية التي تعظّم دوره فوق المعقول، إلا أنه ينبغي اطلاق سراح الاعتزاز الجميل بخواصه ومزاياه، وبصلته

الحميمة، مع "حرّية" بعلية، جردية، قدر ما هي متوسّطية، عملية.

"الاعتدال" كلمة حيوية يمكن أن تتّسع لمنظومة أفكار وحساسيّات وتجارب ومبادرات تتمركز حول مفهوم "العدالة". هذا يعني لبنانياً، أنّ "الاعتدال" هو نقيض ذهنيات "الإستقواء" و"التسلّط" ومشاريع "الهيمنة" الفئوية، مثلما أنّه إظهار لما في هذه الذهنيات والمشاريع من حياد عن جادة السوية، واندفاع نحو المغامرات اللامحسوبة، التي ترتد في النهاية سلباً على كل الوطن، لكنّها أكثر ما ترتد فعلى الفرقة المغامِرة نفسها، وعلى الفئة التي نشأت ضمنها، وتسيّدت عليها، وقصّت أجنحة المناوئين لها فيها، لتحاول من بعد ذلك الطيران بجموح، وبلا أجنحة كافية، فوق بقية المجموعات، فتطير بعض الشيء ثم تهوي وتقع.

والاعتدال لبنانياً هو من زاوية معيّنة فاتحة قراءة نقدية للتاريخ اللبناني منذ قيام هذا الكيان وإلى اليوم. فنحن أمام كيان يحوي مفارقة كبرى. فأي استيعاب لمعطياته التعدّدية الدينية أو المناطقية أو لموقعه الجغرافيّ، لن يطالعنا الا بنتيجة واحدة: هذا البلد لا يحكم بسيادة منطقة فيه على أخرى، وطائفة منه على أخرى، بل أنّ مشاريع من هذا القبيل لم تقمْ إلا بسلب عموم البلد سيادته، بل تهميش منسوب تقرير اللبنانيين لشؤونهم أكثر فأكثر.

في الوقت نفسه، فإنّ هذا البلد لم تهدأ فيه النزعات المتطرّفة والمصابة بجنون العظمة منذ العقود الأولى لتأسيسه. فهذا يكابر على الجوار والمحيط، وذاك يكابر على الداخل نفسه. هذا يتأثّر بهذه المنظومة التوتاليتارية أو تلك، وذاك يجحد بـ"الديموقراطية الطائفية" اذ يقارنها، خبط لصق، بالديموقراطيات الليبرالية الغربية، بالقفز عن كل سياق تاريخي وحضاري، فيجحد بما حقّقه اللبنانيّون من تجربة اختلاط وتخليط وحرّيات حقّها.

هي مفارقة كبرى. الكلّ في ساعة روية سيقول لك أن هذا البلد لا يحكم بالإكراه والغلوّ والتطرّف والإستقواء والقهر والكيد والكراهية، ولا بمغامرة لا تتناسب مع حجمه، ولا بجحود ينكر من الأصل حيوية البلد ودوره والآفاق المتاحة أمامه. مع ذلك، لم تتوقف التناقضات الداخلية، معطوفة على التبدّلات الإقليميّة، من افراز مشاريع

تطرّف واستقواء، كما لم تتوقف المغامرات غير المحسوبة بل زادت، ولم يتوقف الجحود بلبنان والحطّ من قدره ومن شأن بنيه والتراث التكويني لهويته الوطنية بل زاد.

التطرّف الجامع

واليوم، فما نراه ان كلّ ما زاد اجتمع: المنظومة نفسها التي تسمّي نفسها أو نسمّيها ممانعة، والتي يقودها داخلياً "حزب الله" وأشياع النظام السوري من حوله، إنّما تجتمع فيها كل نقائض الاعتدال اللبناني دفعة واحدة: هي أولاً تمضي في مشروعها الفئوي التغلّبي على اللبنانيين الآخرين، بشكل لا يقارن بأي مشروع تغلّبي سابق، وهي ثانياً تمضي في انعزالها الداخلي، لإنشاء مجتمع منفصل، ومتغلّب بانفصاله، عن سائر المجتمع اللبناني. وهو مجتمع منفصل، بأيديولوجيا تعبوية خلاصية متطرّفة، وبما يؤدي إلى افراز مشاريع "مجتمعات مقفلة" أخرى، بارتدادات غريزية إلى "سياسات الهوية الأولى" وإلى التسابق على الغلوّ، وإلى فرز الناس بين "أشرف الناس" ومن دونهم منزلة، فيردّ عليهم بقلب المعادلة نفسها رأساً على عقب من طرف الفئة الأخرى، وهكذا.

وثالثاً هو نفسه المشروع المغامر بما لا طاقة للبلد الصغير، وللتعدّدية الكبيرة فيه، على احتماله. فزمن تأسيس امبراطورية عالمية انطلاقاً من قبيلة واحدة قد ولّى منذ قرون بعيدة. الا أنّ "حزب الله" يتصرّف كمغامر امبراطوريّ. خلية في مصر، وميليشيا يدرّبها في شمال اليمن، وعلاقة لوجستية بينه وبين "تنظيم القاعدة" في العراق، وعملية تفجير في بلغاريا، تذكّر بغزوة سابقة في بيونس ايرس الأرجنتينية. لكن كل ذلك لا يقارن بالمغامرة المذهبية الدامية الكبرى التي يتورّط بها الحزب ويورّط فيها شبابه وناسه واللبنانيين جميعاً في سوريا، ولا يقلّل من فداحة الأمر، بل كارثيته، وكابوسيته، رهان "حزب الله" فيه على المتطرّفين من الجهة المقابلة. فالتطرّف المذهبي المضاد لن يجعل منه فئة اعتدال، ولم يظهره إلى الحين غير فئة ماضية باندفاع شديد إلى تزخيم وتأجيج الفتنة.. هذه الفتنة التي تبلغ الذروة عندما

يتوجّه طرف فيها لمن يخالفه بأنّ "الفتنة هي الآخر"، وعندما يعرّف نفسه بـ"أني أنا المقدّس" أمّا "أنت فتكفيري". هل يقاتل "حزب الله" التكفيريين في سوريا، أو يقاتل من يحسبهم كفاراً؟ احترنا!

ورابعاً، فإن هذا المشروع نفسه، الفئوي والمغامر، يتطرّف أيضاً لجهة جحوده بالكيانية اللبنانية، ويعامل البلد كما لو أنه بلد أجنبي بالنسبة إليه، وبدلاً من أن يحاول إغناء الوطنية اللبنانية المراكمة طيلة القرن الماضي فهو يسعى إلى ابطالها بالمطلق، في الوقت نفسه الذي يوزّع تهم العمالة والتخوين هنا وهناك، بشكل اعتباطي ومبتذل يتبدّل حسب خارطة تحالفاته، وتبعاً للتقية السياسية حيثما دعت الحاجة. هذا في حين يضرب المشروع نفسه معيار الوطنية ويعرف عن نفسه بصفة الطليعة التي تأخذ على عاتقها "أمّة رسالية"، وهذه في عرف منظومة الممانعة تبقى "أمة مبهمة"، ساعة تتلبّس "العروبة" وساعة تتطرّف في "الشعوبية"، وساعة ترفع راية "الاسلام" وساعة تعيد كل تاريخنا الحالي إلى واحدة من ترجيعات حرب الجمل وصفّين.

التطرّف العاجز

وفي وجه هذا التطرّف الجامع لشرائطه، ككونه فئوياً ومغامراً وعابراً للحدود ومتماثلاً مع نظام حاكم في دولة أجنبية وجاحداً بالكيانية والميثاقية وانتدابياً هيمنياً في علاقته مع مكونات المجتمع اللبناني، وايديولوجياً شمولياً لجهة التعبئة والعقيدة، يبرز التحدي بأن لا يكون الرد على التطرّف بالتطرّف. ففي مقابل جحود "حزب الله" بالوطنية اللبنانية، بالحريات العامة والخاصة، بالسلام كقيمة أساسية، بالتسامح والتنوير والاصلاح الديني، بالتراكم الثقافي والتعددية بكافة مندرجاتها، لا ينفع التطرّف المقابل، فهذا قد يزيّن لنفسه لبرهة أنّ الذئبية لا يردّ عليها الا بالذئبية، وان الاعتدال ضعف، وهذا يستند أساساً إلى كون الاعتدال اللبناني لم يستطع أن يثبت نفسه ويبلور طرحه ويجسّد برنامجه بالشكل الكافي بعد.

الاعتدال "حلم بالحُلم" بين اللبنانيين، بالرويّة والتأنّي. التفاتة إلى تعدّدية الأبعاد

والمستويات في الواقع اللبنانيّ وعند استرجاع المراحل الماضية. هكذا، أقلّه، يفترض به أن يكون. لا يكون الاعتدال بتوهّم ان كل التاريخ اللبناني الماضي كان تاريخ نزعات تآخٍ وتسامح وتوازن واتزان واعتدال، ولا بتوهّم انّ كل الذي جرى هو تعاقب نزعات متطرّفة وذئبية، تنهش الواحدة منها لحم الأخرى، وتفرض لحظة غلبتها ثم يأتي من يخلعها. لا هذا الوهم ولا ذاك. فهذا البلد فيه من التناقضات ما جعل توالي مشاريع الاستقواء الفئوي يتواجه، وأحياناً كثيرة يتعايش، مع أشكال اعتدال متفاوتة في الوعي والخبرة والحظ، ويندرج ضمن ذلك كل مسعى كي يكون لبنان بلداً مثل سواه من البلدان المتصالحة مع كيانها ووجودها، والمشخّصة بشكل واقعيّ لأدوارها وامكاناتها، ومتطلّعة بشكل مدروس نحو الآفاق والطموحات التي من دونها لا يمكن أن ينال أي شعب في هذه الدنيا حقّه من "السعادة"، علماً أنّ "السعادة"، والتي كان يعبّر عنها ذات يوم ذلك الشعار التقدميّ جدّاً، والراهني تماماً "وطن حرّ وشعب سعيد"، انما من شروطها، تأمين مناخ من السويّة، ومن المصارحة والشفافية والهدوء، يستعيد فيها الخطاب السياسي بلاغته من بعد أن استبدّ به الابتذال والاسفاف، ويروّج فيه مجدّداً الخطاب الاقتصادي الاجتماعي الذي تعبّر فيه كل فئة عن موقعها ومصالحها ومخاوفها، من دون غوغائية ولا رُهاب، كما أنّه الإصلاح المطلوب في الخطاب الثقافيّ، ما يستدعيّ بالدرجة الأولى، ملاحظة الركود الذي وقعنا فيه.

منهاج تغيير لا محافظة

الاعتدال كي يكون اعتدالاً بحق يلزم أن يكون تغييرياً، ويمكنه حتى أن يكون جذرياً سواء في تشخيصه للمشكلات أو في اجتراحه للحلول، انما بشروط ثلاثة:

الأول أن النضال التغييري المعتدل ينبغي ان لا يلبس أي معركة كانت، سواء سياسية أو اجتماعية أو ثقافية لبوس ثنائية "الخير المحض في مواجهة الشرّ المحض". فحتى عندما يكون الخصم شريراً، ينكّل بالناس ويهدر طاقات المحسوبين عليه، بلا طائل، وجب عدم الوقوع في ما وقع فيه من شطط، كونه تصوّر نفسه على أنه الخير في ذاته، والحقّ المجسّد، والشرف الأعلى، فكان أن ظلم الآخرين مرة

بمظلوميته، ومرة بانتصاريته، وما فعل في نهاية الأمر سوى أنه ظلم نفسه.

في هذا المجال بالتحديد ينبغي أن يعي ذلك اللبنانيّون الذين يواجهون اليوم تطرّف "حزب الله" بالدرجة الأولى، لكن أيضاً كل تطرّف آخر يناوئ تقاليدهم المتسامحة والشغفة بالحياة ومتعها وحرّياتها، وخلطتهم الجبلية – المتوسّطية، بحلوها ومرّها، وبكثرة المبالغات التي قد يفطر الناس هنا عليها. فهم اذا كانوا يواجهون هذا الحزب أو غيره من المتطرّفين، فليس لاستبدال تطرّف بآخر، وليس لادعاء تمثيل "الخير المطلق" و"الحق المطلق" في مواجهته، وانما من أجل بلورة المنظومة التي يسمح الارتكاز والاحتكام اليها بأن يتوقف كل الفرقاء عن الشعور بالغبن والحرمان والاستبعاد والمظلومية في وقت واحد، وهذه مفارقة مضحكة مبكية في لبنان، لكنها تكشف عن مشكلة عميقة.

والشرط الثاني للتغيير المعتدل أنّه ينطلق من معطيات الواقع ولا يكابر عليها، ولا يغامر في تعنيف هذا الواقع سواء بالتعامي الكلامي عنه، أو بالإجهاد الارادوي له. فأساس الاعتدال من الناحية الفلسفية، هو التنبه إلى ان "الخلق من عدم" ليس من صلاحيات الإنسان، بل الإله الخالق. وهكذا، فالاعتدال وان كان يتيح كفكرة، بل يحثّ على قفزات نوعية في اتجاه الاصلاح السياسي للنظام اللبناني، فإنه لا يمكن أن يفعل ذلك الا في ضوء الانطلاق من المحقّق، والمراكَم. ليس كل يوم يمكن انتاج نقطة ميثاقية اسلامية – مسيحية، وبالتالي ينبغي الانطلاق مما تحقّق في هذا المجال، حيث أنّ الحرب اللبنانية انتهت بميثاق تكمن القوة فيه بأنه نظر إلى هذا الكيان على أنه كيان اسلامي – مسيحي بامتياز، وجعل لذلك مدخلاً مهماً هو المناصفة، وكان أن عاد الارشاد الرسولي ليرفد هذه المعادلة بالقراءة المسيحية لهذه الميثاقية الاسلامية – المسيحية المنبعثة بعد الحرب، والتي بقيت تقضّ مضاجع نظام الوصاية السورية على لبنان إلى أن أجبرته على الجلاء الذي حاول عبثاً استباقه أو محاصرته لأجل الغاء مفاعيله، من طريق الاغتيالات المتسلسلة.

والشرط الثالث أنّ برامج المعتدلين التغييرية لا يمكن أن تكون مقفلة، بل تفترض المراجعة عتبة عتبة، ولا يمكن أن تجيب عن كل الأسئلة دفعة واحدة، ولا هي تعد الناس بالجنّة على الأرض، انّما تستعيد هذه البرامج، الهدف الذي حدّده عبقري علم السياسة

الفرنسية في القرن التاسع عشر الكسي توكفيل بأنه ابتغاء تحسين مصالح وشروط عيش العدد الأكبر من الناس عند كل منعطف. وهذا ينبغي أن يكون مدخلاً على سبيل المثال، لا الحصر، لتدشين ورش تفكير حقيقية تعيد تقويم كومة الأدبيات السياسية الطموحة في العقدين الماضيين والتي تمحورت كلّها حول موضوع "بناء الدولة" أو "العبور اليها" في لبنان. لماذا لم يترافق هذا التراكم في الأدبيات وفي الانتظارات الا مع تراكم في أسباب وأشكال ومناحي تعطيل المؤسسات وتفريغها من محتواها، والاستهانة بالقوانين، واحلال "شريعة الغاب"، بل "شريعة اصبع التهديد"؟ هل فقط لأنّ "حزب الله" شكّل رأس حربة المشروع "المقاوم في الدولة" في لبنان، أو لأن الفكرة عن الدولة في معشر اللبنانيين الاستقلاليين والأحرار بقيت هلاميّة، ومجرّدة، ومثاليّة، ومنفصلة عن تاريخ الدولة الموجودة هنا وجوداً ناقصاً، بحيث سهّل ذلك على هذا الحزب الفئوي – الشموليّ المسلّح الانقضاض على مؤسسات وأجهزة وعلى دستور وقوانين الدولة الموجودة بالفعل، وان كان وجودها ناقصاً وجزئياً؟

لأجل ذلك، ومثلما أن في الاعتدال السياسي اللبناني عناصر محافظة لا مفرّ منها، ومنها الالتقاء مع عنصر أساسي في التفكير السياسي المحافظ – بالمعنى الغربي لكلمة محافظ – وهو ان المؤسسات السياسية ان فرط عقدها لا يمكن تأمين بديل عنها بشكل إرادوي وسريع، وبالتالي لا بدّ من صدّ كل تفريغ للمؤسسات وكل تعطيل، ولا بدّ من الهزء بكل دعوة إلى "التأسيس من الصفر"، فلا تأسيس الا على تراكم، والا كان التأسيس مغامرة، يدفع بها من يمتلك الآن سبب القوة المسلحة وقد لا يمتلكها غداً، فترتد المغامرة عليه وعلى الدائرة التي ينبثق منها ويدّعي تجسيده لمصالحها وطموحاتها.

الاعتدال القديم والاعتدال الجديد

قبل الربيع العربي لعام 2011، كان "الاعتدال" اسم مشترك لمجموعة من العواصم الاقليمية المواجهة لمنظومة الممانعة التي تقودها ايران، والحركات الراديكالية الدائرة في فلكها، والنظام السوري الذي بدأ ندّاً في تحالفه معها وانتهى تابعاً لها،

والغلبة الفئوية التي جاءت بعد الاحتلال الأميركي تستبدل الغلبة الفئوية التي كانت قائمة في ظل "البعث"، وعموم دعايات المزايدة ضد منطق التسوية في الصراع العربي – الاسرائيلي.

وفي لبنان، شكّلت "قوى 14 آذار" حلقة متميزة من هذا "الاعتدال العربي" وقتذاك، كونها كانت تمثّل ائتلافاً تعددياً يدافع عن الحدّ الأدنى من الديموقراطية اللبنانية في مواجهة الحد الأقصى من العدوان عليها من جانب "حزب الله" وحلفائه. التوفيق بين الطبيعتين "الديموقراطية" و"المعتدلة عربياً" للحركة الاستقلالية اللبنانية لم يكن بالأمر السهل. الاعتدال كان يفتقد ربيعه.

لكن الربيع العربي الذي جاء يزلزل الاقليم، ويكشف تصدّع المجتمعات في الأنظمة المنهارة، جاء ليخالف الصورة الوردية المشكّلة عنه في عامه الأول. فالانتقال إلى التعددية الدستورية، وإلى التداول السلمي على السلطة، لم يفرض نفسه الا بأشكال مراوغة، وهشّة، سرعان ما تنقلب إلى نقيضها. وهذا لا يقلّل حجّة الدستوريين – التعدّديين في لبنان والمنطقة، بالعكس تماماً، لكنه لا يعني أن الواقع يسير وفقاً لمشتهاهم، ما يدفعهم من ثمّ إلى وجوب الاعتدال هنا أيضاً، وعلى قاعدة نبذ تصوّرين: الصورة الوردية للربيع العربي، المتفائلة فوق اللزوم، والصورة الكابوسية عنه، المسخّرة عن قصد أو عن غير قصد لخدمة المقاومة الاستبدادية لهذا الربيع، وهي مقاومة عنوانها الأبرز اليوم نظام المجازر اليومية في سوريا.

طبعاً، ينبغي أن يبقى المعتدلون متمسكين بالتفاؤل، الا أنه التفاؤل الواعي، النقدي، المطمئن إلى ان الأمور لا يمكن ان ترجع بكليتها إلى الوراء، وانّ الشعوب التي خرجت تنادي بالحرية لن تسمح بأن تسلب ما حققته بهذه البساطة، لكنه التفاؤل الذي ينبغي ان يظلّ قلقاً، طالما ان مسيرة تكريس انتفاضات الحرية في نظم سياسية تعددية دستورية وفي سياسات اقتصادية واجتماعية تعالج الصدع في هذا المجتمع أو ذاك، ما زالت مسيرة لم تبدأ بعد، والاعتدال العربي الجديد يكون باطلاق

هذه المسيرة ويطرح نفسه كسلسلة علاقات متوازنة، بين الدين والدولة، والمدينة والريف، والأفراد والجماعات، والمصالح الوطنية والقضايا القومية.

في مرحلة انكفاء المستعمرين، لم تتمكن النخب التقليدية من الحفاظ مطوّلاً على الهامش الليبراليّ والنكهة الكوزموبوليتية التي كانت تطبع المدن الرئيسية في المنطقة قبل عصر الانقلابات العسكرية، وهو ما يعود بشكل أساسي إلى عدم قدرة هذه النخب التقليدية على تمثيل سياسات تعمل على النهوض بحال العدد الأكبر من السكان، وبالذات أبناء الأرياف المختلفة. صعود العسكر، وفي مقابلهم الحركات الاسلامية، كان في جزء أساسي منه بسبب من ذلك. والحال أننا اليوم أمام مشكلة شبيهة نوعاً ما، طالما أن النخب الليبرالية التي أفرزتها العقود الأخيرة وبرزت في موجات الربيع العربي الأولى تبقى غير قادرة على الشخوص إلى الهدف الرئيسي لأي سياسة ديموقراطية حقيقية: تحسين مصالح وأرزاق وأنماط حياة العدد الأكبر من السكان بشكل متدرّج وتراكمي.

بسبب من تأخر انبثاق مناخ اعتدالي دستوري تعددي شعبي جديد في كل بلد عربي اثر موجات الربيع الأولى، كان أن أمسكت ثنائية "العسكر والاسلاميين" مجدداً بالرقاب، فيما غرقت الثقافة السياسية بين خيارين لا يبنى عليهما: شعبوية غوغائية توهم نفسها بأنّ "الجماهير هي الحل ليل نهار"، ونخبوية منعزلة وغير مستندة إلى قاعدة اجتماعية. الحركات الاسلامية وصلت من طريق الصناديق إلى سلطة – لم يكن قد تخلى العسكر عن عمقها – أظهرت كما تدلّ التجربة المصرية تحديداً زيف وعودها بالتحول إلى حركات ديموقراطية محافظة، ومعتدلة في انتهاجها لمنطق التداول السلمي على السلطة، فكانت أن عبّدت لنفسها طريق فشلها السريع والذريع ومكّنت أخصامها من خلعها، خصوصاً حين حاولت استخدام جهاز دولة ليست منه وليس منها ضد أخصامها.

الاعتدال الجديد الذي تنبغي المبادرة نحو اطلاق فكرته والجمع بين حساسياته المختلفة على امتداد الاقليم ينبغي أن يقرأ جيداً في هذه التجربة، مثلما ينبغي عليه ان يقرأ جيداً في "الاعتدال القديم" الذي رفعت لواءه يوماً الأنظمة التي سقطت بفعل الربيع.

كذلك الأمر، فالاعتدال الحقيقي لا يعني ابداً التطرف في مواجهة الحركات الاسلامية، ولا الانسياب في الموجة الشعبوية المقابلة لها. الاعتدال قدر ما يستلزم نقداً جذرياً لوقائع عجز الحركات الاسلامية، لا سيما المتحدرة من المدرسة الاخوانية، ونكوصها عن انتاج اعتدالها الذي وعدتنا به هي قبل سواها، فهو يستلزم نقداً جذرياً للنزعات الاستئصالية واللائكية المغالية، ولكل النزعات الشعبوية والبونابرتية، وكل من يدّعي امتلاكه لشرعيات تامة، وحلول سحرية. ما نحتاجه في كل بلد هو النظرة العادلة إلى مكوّناته، واقرارها على ما هي عليه، ووصفها بالشكل الملموس، من دون نظرة تحصر نفسها في المدينة دون الريف، وفي القسم المتغرب ثقافياً من المجتمع دون القسم التقليدي او الاحيائي دينياً واجتماعياً أو العكس، ولا تكابر على التعددية سواء كانت لسانية أو مناطقية او دينية او مذهبية، وتنصف الجماعات كما الأفراد، ولا تغفل راهنية النضال من أجل تحقيق السيادة الوطنية ليس فقط سياسياً بل أيضاً اقتصادياً وحضارياً.

في الأمر أفق طوباوي خلاصي بلا شك. لكن بمجرد ان يبدر هذا الافق الطوباوي الخلاصي من الجرأة على تسمية التعددية الموجودة عينياً والواقعية بأسمائها وكما هي تُفصح عن نفسها، وعلى عدم استبعاد فئة لأي عذر أو ذريعة كانت، فان الاعتدال يصير بمثابة الفكرة المحرّضة على تحويل مثالات العدالة إلى برامج سياسية، جذرية ومتدرّجة في آن: جذرية ليس لأنها تدعي امتلاك الحقيقة او امتلاك الحل، بل لأنها تقرّر بأن الحقيقة هي حقيقتنا سوية، والحل لا يفرضه فريق على آخر، بل يصنعه فريقان عندما يتفقان على الاهتداء إلى ثالث يحكم بينهما، وهو القانون، وعلى رأسه قانون القوانين ورأس هرمها: الدستور.

منذ 1876 عندما أعلن الدستور العثماني، وتشكّل "مجلس المبعوثان"، كنتيجة لتراكم الاصلاحات أو "التنظيمات" العثمانية وإلى اليوم، لا تزال الفكرة الدستورية تناضل في مواجهة نفاتها، والمتحايلين عليها في هذه المنطقة. المعتدلون هم الدستوريون، أو اذا شئنا استعادة تعابير الثورة الايرانية لعام 1905 هم "المشروطة" في مواجهة "المستبدة". اليوم أيضاً هذا هو التحدي: الصراع بين أنصار وأعداء

"التنظيمات" في الفترة العثمانية المتأخرة هو صراع الراهن العربي بين دستوريين – تعدديين يعرّفون اعتدالهم اذاك بالايجاب، وبين متطرفين ليس لهم أي ايجاب يعرّف عنهم لأنهم يتشاركون، من أي خلفية أتوا، في النزوع إلى العدم. الاعتدال وجود.

(١) طارق متري

بعد سقوط الاتحاد السوفياتي صار الاعتدال النظام المرتجى

يُجري الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في ليبيا الوزير السابق طارق متري، قراءة في مفهوم الاعتدال وتعريفه منذ الفلسفة اليونانية والتراث الاغريقي وصولاً الى الحضارة الإسلامية، ليصل الى استنتاجات أولها أن الاعتدال هو المنتصر في نهاية المطاف "لأن العقائد سقطت والتطرف مرتبط بالعقائد بوصفها غير قابلة للنقاش وتستحق الاستماتة من أجلها". ولذلك صار الاعتدال برأيه هو "النظام المرتجى في دول العالم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، بمعنى أنه يحل مكان النزاع تحت عنوان المنافسة، حيث يتحول الصراع الأيديولوجي في الدول الى منافسة تنزع المطلقات من السياسة".

هنا نص الحوار:

• كيف تعرّف الاعتدال؟

— "مفهوم الاعتدال متعدد المعاني والايحاءات. في الاستخدام الشائع، المعتدل هو الشخص المسالم الذي يحاور ويتحاشى الحدة ويبحث عن تسويات. المصطلح يردّنا بين المسلمين الى فكرة الوسطية في الإسلام، أي الإسلام الذي لا يجنح في اتجاه الروحانيات على حساب الماديات، أو الانغماس في الماديات على حساب الروحانيات، أي يحافظ على التوازن. هذه الوسطية في الإسلام ترتبط بفكرة العدل. في الفلسفة اليونانية وفي التراث الاغريقي الاعتدال فضيلة مجالها ضيق، أي كيف لا

تجنح في طريق ضيق في اتجاه موقف غير أخلاقي يمنة أو يسرة. أعتقد أن هذه الكلمة في الأدب السياسي وعندما تستخدم في اطار الحديث عن العالم العربي والإسلامي، تعني ان الاعتدال هو نقيض التطرف، والتطرف مرتبط في أذهان الكثيرين بالعنف، أي محاولة التغيير السياسي بواسطة العنف، لكن يعني أيضاً في الوقت نفسه، أن الاعتدال هو المنتصر باعتبار ان العقائد سقطت والتطرف مرتبط بالعقائد باعتبارها غير قابلة للنقاش وتستحق الاستماتة من أجلها. ثمة علاقة بين التطرف ومنظومة العقائد المتماسكة، بينما الديموقراطية تجعل من السياسة امراً نسبياً لا حقائق مطلقة فيها، ولا حق وباطل".

المنافسة وفكرة الديموقراطية

يضيف متري: "صار الاعتدال هو النظام المرتجى في دول العالم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي بحيث يسود في العلاقات بين الناس، بمعنى انه يحل مكان النزاع تحت عنوان المنافسة، وهذه هي فكرة الديموقراطية، حيث يتحول الصراع الأيديولوجي في الدول الى منافسة تنزع المطلقات من السياسة. هذا لا يعني طبعاً أن لا أخلاق في السياسة. هناك بعد أخلاقي في السياسة وأهم ما فيها أن ثمة نسبية، فإذا كنت خصمي في السياسة فهذا لا يعني أنك خصمي في كل شيء. اليوم نختلف وربما غداً نتفق. هذا مسوغ أخلاقياً وليس معيباً على الإطلاق، احترام الرأي الآخر والبحث عن مشتركات معه وعن تسويات. البحث عن تسويات ليس أمراً لا أخلاقياً بل بالعكس هو يحصن السلم الاجتماعي ويشرك الجميع في القضايا المشتركة. إذاً مع انحسار الأيديولوجيات وبما ان العقائد لم تعد تتحكم بالدول، مال الناس أكثر نحو الاعتدال، لكن بقي هناك استثناءات هم المتطرفون الموجودون في كل العالم. المتطرفّون اليوم فئتان: اليمين الأقصى في الغرب، أي اليمين العنصري الذي يخوف المجتمعات من الوافدين إليها ولديه حنين إلى الفترات التي كان للدول فيها أمجاد قومية، والتطرف الإسلامي هاتان الفئتان هما اللتان تخرجان عن الميل العام للاعتدال. العنصريون في الغرب والحركات الراديكالية الإسلامية في العالمين العربي

والإسلامي. هناك جماعات متطرفة أخرى في افريقيا وغيرها، لكن هاتين الكتلتين هما الأبرز في العالم، في ما يخصّ منطقتنا، في السنوات الثلاثين الماضية صار هناك ميل متنام وتولدت فكرة نتيجة خبرة متراكمة أن الحركة الإسلامية هي في الحقيقة حركتان، حركة إسلامية معتدلة وأخرى متطرفة. حركة ترفض التغيير بالعنف، وتريده بالوسائل السياسية لتحقيق أهدافها، وتقبل بتداول السلطة وببعض الديموقراطية وليس كلها وتعترف ان السياسة وشؤون الحكم امر نسبي ولا يمكن اقحام المطلقات الدينية في كل موقف سياسي، وهذا يسمى الاعتدال. وقد ذهب الاخوان المسلمون في هذا الاتجاه وأطلق عليهم في الكتابات السياسية اسم "المسلمون المعتدلون"، مقابل فئة خرجت من رحم الحركات الإسلامية المعتدلة لكنها كفّرت المسلمين المعتدلين ودعت للعنف من اجل التغيير ودعت لحاكمية الله واعتبرت المجتمعات الإسلامية جاهلية واعتبرت الحكام كافرين ودعت للجهاد ضد هؤلاء الحكام وصارت فريضة على المسلم ان يجاهد ضد هؤلاء الحكام. من هؤلاء تنظيم "القاعدة" وتنظيمات اخرى نشأت في مصر مثل جماعة "الجهاد" و"التكفير والهجرة" ومجموعات اخرى كثيرة، اي "القاعدة" واخواتها. هناك منظمات مماثلة في المغرب الإسلامي مثل بوكو حرام في نيجيريا ودول اخرى، خرجت من عباءة الجماعات الإسلامية التي صارت تسمى معتدلة وكانت ثمة قناعة عند البعض وظن عند البعض الآخر ان ثمة قطيعة بين الحركات الإسلامية المعتدلة مثل "الاخوان المسلمين" وهذه الحركات الراديكالية، وان الباب الذي خرجوا منه اغلق وراءهم. الآن وخصوصا بعد الذي حصل في مصر، هناك انطباع أن هذا الباب لم يغلق وأعيد فتحه، وانما ربما اصبح باباً دواراً يمكن للإسلاميين الراديكاليين والإسلاميين المعتدلين ان يخرجوا منه ويدخلوا عند بعضهم البعض ويتعاونوا. هناك تفسيران: الاول يقول ان الإسلامي السياسي بأفكاره الرئيسية التي حركته منذ البداية تحت عنوان ان العالم الإسلامي مهدد وأن الهوية الإسلامية محاصرة، هذه مشتركة بين كل الحركات الإسلامية لكن ثمة حركات اكثر اعتدالاً من غيرها او توزيع ادوار فيما بينها تعود بعدها للالتقاء في ظروف معينة ولا يعود هناك تباين فيما بينها. ثمة تفسير ثان انا اميل له يقول ان هناك فرقاً كبيراً بين هذا النوع من الإسلاميين واولئك وان ثمة إسلاميين معتدلين نبذوا العنف فعلاً

وحاولوا ان يتواءموا مع الديموقراطية وان يصبحوا ديموقراطيين اكثر وحاولوا التوفيق بين الديموقراطية والإسلام واجتهدوا قليلاً في هذا التوفيق من اجل انجاحه.

الإسلاميون والسلطة

بعض هؤلاء كان صادقاً لكن البعض الآخر ذهب في اتجاه العنف ولم يكن صبوراً. إذاً، كان هناك فارق بين الاثنين لكن فشل تجربة مصر وقبلها ما جرى في الجزائر رغم محدودية المقارنة تشي بأمر ما، فما حصل في الجزائر أن "جبهة الإنقاذ" الإسلامية دخلت في العملية السياسية وشاركت في الانتخابات البلدية، لكن عندما حرمت من حقها في الوصول الى السلطة بحجة أنها ليست ديموقراطية، وأنها عندما تستحوذ على السلطة لا تتخلى عنها، فهذا أدى الى المواجهة بين الجيش والإسلاميين، فصار الإسلاميون المعتدلون راديكاليين. ويخشى أن يصبح في مصر أمر مشابه نتيجة فشل "الاخوان المسلمين" خلال الفترة الوجيزة التي احتلوا فيها مواقع السلطة حيث اتهموا بالاستحواذ عليه وأنهم غير ديموقراطيين وإنما أتوا الى السلطة للسيطرة عليها وللإمساك بمقاليد الدولة ومؤسساتها كافة ويكرسوا حكم الاغلبية الديموقراطية. الديموقراطية هي تسليم السلطة للأغلبية وليس السيطرة على السلطة دائماً وابداً وإن الكل يتناوب مع الكل لا بل البعض يشرك الأقليات معه. عملية بناء الدولة هي نتاج عمل الأغلبية والأقلية معاً وليس طرفاً واحداً. وإن وصل طرف الى السلطة فهذا لا يعني انه يملك الدولة لوحده. فشل هذه التجربة للاخوان لمسلمين في مصر، او إفشالها في مكان ما في الوقت نفسه، دفع بالحكومة المصرية الموقتة الى اتهام "الاخوان المسلمين" بأنهم تنظيم "إرهابي" مما يطرح السؤال الى اين يمكن ان تذهب الأمور؟

ما هي نتائجه وما هي تأثيراته على تصرف "الإخوان" أنفسهم، هل يدفعهم إلى مزيد من الراديكالية؟. هذا سؤال مشروع وأعتقد أن كل الناس يطرحونه. ما من شيء محسوم على ما أعتقد، لا تزال الإحتمالات مفتوحة. ولكن ترى الكثير من الناس، ليس فقط المثقفين والكتاب، بل السياسيين في دول كثيرة لا يستطيعون

التعامل مع هذه الظاهرة. هناك فكرة شائعة، أنا أعتقد أنها ليست صحيحة. فكرة شائعة وإن فيها نسبة محدودة من الصحة ليست صحيحة كلها، أن الغرب اجرى تقويماً للثورات العربية، واعتبر أن الإسلاميين قادمون إلى السلطة، فاعترف بهم وربما رحب بوصولهم إلى السلطة حتى. والآن عندما تبين أن وصولهم إلى السلطة في الأماكن التي وصلوا اليها محفوف بمشاكل كثيرة وصار هناك انتكاسات كما في مصر، فحار في أمره ولا يعلم ماذا يفعل. أنظر إلى تخبط السياسة الاميركية في ما يعني مصر. تخبّطوا عندما قامت الثورة ضد حسني مبارك، تخبّطوا عندما استمر العسكر طويلا في السلطة، وعندما انتخب محمد مرسي وتخبّطوا عند اندلاع الثورة والإنقلاب على مرسي. والآن هناك تخبّط".

الراديكالية والليبرالية

• تعرض الربيع العربي، والاعتدال الإسلامي لانتكاسات تفاوتت بين بلد وآخر، حتى الاعتدال في سوريا تعرض لنكسة كبرى مع بروز التطرف على ضفاف المعارضة؟

— "لا شك".

• كيف يمكن توصيف هذه الانتكاسات المتتالية في ظل هذا الربيع، وما هو مصيرها برأيك؟

— "صعب جداً أن يتكهن المرء برأي للمستقبل القريب على الاقل. هذه الثورات كانت حبلى بالإحتمالات وتسارع فيها الزمن، وفي سنتين وثلاث سنوات شاهدنا إحتمالات كثيرة. في سوريا، في العام الأول، كانت ثورة سلمية مدنية مبدعة. انخرط فيها الشباب والنساء. كان احتمال التغيير على يد هذه الثورة كبيراً. ولاحقاً تعثرت وقمعت، تعثرت، تعسكرت. وبالتزامن مع عسكرتها صار للحركات الراديكالية أدوار عسكرية متزايدة. والآن ميزان القوى العسكري لا يعكس بالضرورة علاقات القوى السياسية وعلاقات القوى السياسية لا تعكس علاقات القوى الإجتماعية. المسلمون السوريون لم يعتنقوا أفكار "داعش". قلّة قليلة فعلت. "داعش" و"النصرة" تملكان

قوة عسكرية مع الفارق بينهما، لكن القوة العسكرية لا تعكس القوة السياسية نفسها، ولا القوة السياسية تعكس قوة في المجتمع السوري. لكن المجتمع السوري يغلب على المسلمين فيه الإعتدال والحداثة. سوريا الأفكار الحديثة، حيث يعتنقون المدنية المنفتحة على العالم مثل مساواة الرجل بالمرأة، مجتمع حديث بنسبة عالية. لكن تحقيق نجاح على الصعيد السياسي قد يتطلب الكثير من الوقت".

ويستطرد متري: "أنا مقيم في ليبيا وأعرف وضعها، الانتخابات ربحها وطنيون ليبيون غير إسلاميين، البعض يسميهم ليبراليين – ليست التسمية الأمر المهم – وربما انتخبوا لا لإعجاب الناس بهم فقط، فالليبيون شعب متدين. المسلم الليبي العادي معتدل لا يرتاح لاعتناق عقيدة سياسية باسم الإسلام، وراضٍ بإقامة مجتمع أو نظام سياسي ديموقراطي تعددي وهو مسلم. لا يرى تناقضاً بين إسلامه وقبوله بدولة حديثة ديموقراطية. ومشيخة الأزهر في مصر أصدرت وثائق مهمة جداً يجب على الناس عدم نسيانها في هذا الجو المضطرب على الصعيد السياسي، والتي تقول بدولة دستورية وطنية حديثة. كما هناك وثيقة للأزهر عن الحرية، حرية الفكر، حرية الضمير، حرية الإبداع وحرية البحث العلمي وعن المرأة أيضاً. هذا كله يظهر أن الإسلام الوسطي الذي ربما يكون أكثري في المجتمع وعلى الأرجح هو أكثري، إسلام منفتح ومتقبل للديموقراطية والحداثة والحريات وحقوق الإنسان رجلاً وامرأة. لكن السؤال هل هذا النوع من الإسلام الوسطي يمتلك الأدوات السياسية التي تسمح له بأخذ الثورات العربية الى مآلها الحقيقي الذي قامت من أجله أي الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية؟. لا نعلم. وإن أخذها متى سيفعل بعد 5 سنوات، 10 سنوات، بعد جيل كامل؟ هذا الأمر صعب التنبؤ به".

الاعتدال الإسلامي اللبناني

*** عسكرة الثورات العربية أو الاعتدال العربي. أو خطر التطرف هل يمكن أن ينسحب على الاعتدال الإسلامي في لبنان والاعتدال عموماً؟**

— "للبنان وضع خاص، تعدديته تضطر أشد الناس تطرفاً أن يضعوا بعض

الماء في "زيتهم". المتطرف اللبناني بمعنى ما أقل تطرفاً، لكن الكتل الرئيسية في الطوائف اللبنانية تسمي نفسها معتدلة، ولكنها ليست كلها معتدلة بالنسبة نفسها، لكن أعتقد أن عيشها مع بعضها البعض يفرض عليها قدراً من الاعتدال، نظام سياسي قائم على التسوية وقدر من الاختلاط وحريات عامة. هذه كلها ليست بيئة للتطرف، لكن التطرف الطائفي لسوء الحظ يسمى اليوم، مذهبياً. "الطائفية" تطلق على ما يتعلق بالعلاقات الإسلامية – المسيحية، و"المذهبية" بين السنّة والشيعة، لكن الموقف نفسه بأن تتعصب لجماعة ضد جماعة أخرى بقطع النظر عن التنوع الموجود في جماعتك أنت وتلك الجماعة. في لبنان مع ازدياد الحدة في العلاقات ما بين الجماعات لأسباب البعض منها لبناني والبعض الأكثر إقليمي له علاقة بإيران وسوريا. مع ارتفاع الحدة، ظهر على هوامش كل الجماعات عدد أكبر من المتطرفين بما في ذلك عند المسيحيين، حيث كنا نحكي عن التطرف العنصري في الغرب وإذ هناك مسيحيون عنصريون يطلقون كلاماً مخيفاً عن (النازحين) السوريين. وهذا شكل من أشكال التطرف، وإن لم ينشئوا تنظيمات أو يرسلوا سيارات مفخخة، لكن التركيبة العقلية والثقافية تشبه التطرف. طبعاً هناك مجموعات راديكالية إسلامية سنية وشيعية أكيد. لكن رغم حدة الأزمات السياسية التي نشهدها والصعوبات حيث أن أي قضية صغيرة تتحول إلى قضية خلافية، رغم مخاطر الاغتيالات، اغتيال الشخصيات المعتدلة كمحمد شطح، التهديد الدائم بالعنف، رغم أزمة النظام السياسي وصعوبة تشكيل حكومة، والخوف من الوصول إلى الفراغ في ما يخص رئاسة الجمهورية وغير ذلك، رغم ذلك كله يبقى ثمة أمل في أن اللبنانيين قد لا يذهبون في منطق العداء المتبادل بين الجماعات إلى حده الأقصى. في مكان ما يلجمون ويعصمون أنفسهم عن العنف الطائفي الصرف، لأنهم يعلمون أن عليهم في النهاية إيجاد تسوية. وإن كان حتى الطائف لا يعجبهم في النهاية عليهم الاتفاق على نظام آخر. ما من جهة قادرة على فرض نظام سياسي جديد على الجهات الأخرى، لذلك أظن أن التطرف في لبنان، وإن كانت قدرته على الإيذاء كبيرة، هناك حدود لنموه".

• هل برأيك استهداف محمد شطح هو رسالة ضد الاعتدال؟

ـــ "كثيرون يفسرونها على هذا النحو، هي شيء مخيف حقيقة. شخص منفتح وعقلاني ولديه فكرة عن السياسة ويعتبرها عملاً حميداً ونسبياً في الوقت عينه. أي ليس لديه عمى إيديولوجي، لا يعتنق ايديولوجيا ويعتبر أن السياسة هي في خدمتها. محمد شطح كانت لديه أفكار جديدة يجربّها ويحاور فيها ومستعد لمناقشة كل الناس. هو ضد العنف مع الآخر، وهو شخص غير طائفي أو مذهبي بالمصطلح الشائع اليوم. هو صديقي وأنا أعرفه جيداً، ولم أشعر في أي يوم أن لديه شعوراً حاداً ضد الآخر الطائفي أو المذهبي. نختلف في السياسة لكن نجرب دائماً أفكاراً جديدة ربما تساعدنا على الخروج من الأزمة التي نحن فيها. كان دائماً عقله منشغلاً بابتكار تسويات، حلول، صيغ، أفكار جديدة، والدفاع عن أفكار جديدة. لذلك عندما يتم اغتيال هكذا شخص، تقول هل يريدون قتل الناس الذين يفكرون بعقولهم لا بغرائزهم، الناس الذين يتحاورون ولا يتقاتلون في الخندق، الناس الذين لا يحبون العنف؟ هل يقولون إن العنف خير من غيابه؟ ربما القاتل المجرم الذي قرر تفجير السيارة بمحمد شطح لم يكن يفكر بكل هذه الأمور، لكن أحدهم ربما قام بكل هذه الحسابات".

"التكفيري" أصبح تهمة

• هل تقول إنه لا ينتابك قلق على تجربة الاعتدال في لبنان؟

ـــ "لا أنا لم أقل ليس لدي قلق. عندي قلق. لكن لا أعتقد أن لبنان بلد يمكن أن يجتاحه التطرف. اليوم يتم الحديث عن خطر التكفيريين، لا أعلم إن كانت التسمية موفقة، لنقل الحركات الراديكالية الإسلامية ومنها تكفيرية وأخرى غير تكفيرية، وهذه كلمات باتت ترمى بوجه خصومهم. حيث إذا كنت اليوم لا توافقه الرأي يقول عنك تكفيرياً. باتت هذه التهمة أقرب إلى شتيمة. لذلك لا تساعدنا هذه العبارة على فهم الواقع، ولنلغها من قاموسنا إذ لا معنى لها. هناك مجموعات راديكالية منها لبناني المنشأ وأخرى سورية المنشأ موجودة في لبنان أو من الممكن ازدياد نفوذها في لبنان. لكن يبقى حجمها محدوداً وقدرتها على تجنيد الناس خلفها محدودة جداً. لا

أعتقد أن هناك قابلية عند المسلمين اللبنانيين لاعتناق أفكار هذه المجموعات ولا السوريين، حتى ولو كانت هذه الحركات الراديكالية مسيطرة على قرى. فمعظم الوقت هذه القوى لديها مشاكل مع الناس".

• بهذا المعنى، إن هذه الحركات الراديكالية برأيك لا تشكل خطراً على الربيع العربي أو ما تبقى من هذا الربيع؟

ـــ "أنا لم استعمل أبداً ولا أحب استعمال عبارة "الربيع العربي". العالم العربي شهد تحولات كبيرة ومذهلة وغير متوقعة وأسقط أنظمة استبدادية أو يحاول إسقاط أنظمة استبدادية معظمها أنظمة وراثية بمثابة أنظمة سلطانية، وهذا الأمر ليس بالقليل وعلى المرء ألا ينساه. فقد حدث شيء كبير، لكن لم تقم على أنقاض تلك الأنظمة الاستبدادية السلطانية أو شبه السلطانية أنظمة جديدة حققت كل ما وعدت به هذه الثورات. بالتأكيد صحيح، اعطني في العالم كله مثلاً عن ثورة تمكنت من الإيفاء بكل ما وعدت به خلال فترة سنة أو سنتين أو ثلاث. المسألة تتطلب وقتاً. طبعاً ليس هناك أحد منا لديه ضمانة بأن هذه الثورات ستبلغ مآلها في النهاية بخير وسلامة. لا أحد يعلم. الاحتمالات كلها مفتوحة. لكن مثلما لا يمكننا القول إن هذه الثورات في نهاية المطاف ستنتصر وتحقق أهدافها إذ ما من ضمانة لذلك، أيضاً لا يمكن القول إن الربيع انتهى وبدأ الخريف و"يا محلى أيام مبارك والقذافي وزين العابدين". لا غير صحيح، فالناس رفضوا هذه الأنظمة الاستبدادية ولا يزال قدر من مشاكلنا الحالية عبارة عن إرث من هذه الأنظمة. أكثر من نصف المشاكل في ليبيا سببها إرث نظام القذافي الذي ترك البلد بلا مؤسسات وجيش وشرطة وفلتان الأمن لغياب الجيش والشرطة وهذا إرث حكم القذافي. لا تزال معاناة هذه الشعوب في جزء كبير منها متصلة بإرث الأنظمة التي سقطت وليس بما صنعته الثورات. طبعاً هناك مشاكل ناجمة عن الثورات نفسها، لكنها مفتوحة على احتمالات وتحتاج إلى الوقت. هذه طريق فيها دموع ودماء".

• ما رأيك بنظرة الغرب لما يجري في العالم العربي حالياً انطلاقاً من التجربة السورية حيث بدا أن الغرب بات يتعامل مع هذا الحراك العربي الجديد

وكأن إرهاب الأنظمة أفضل مما يسمونه الحركات الراديكالية الإرهابية. ما مدى صحة هذه النظرة؟

— "ما من غرب واحد. يمكن فصل الولايات المتحدة قليلاً عن أوروبا. الولايات المتحدة بخلاف ما يُقال، لم يكن عندها خطة أو مؤامرة أو سمها ما شئت. الولايات المتحدة تمر بحالة إنكفاء إرادي عن العالم العربي. وهذا ما عاد يختلف عليه إثنان. باراك أوباما يريد أن يكون الرئيس الذي خرج من مشاكل أفغانستان والعراق وإيران والذي بات أقل اعتماداً على النفط العربي، والأهمية الاستراتيجية لدول الخليج بنظره صارت أقل مما كانت في الماضي. وهو يجاهر بهذا الأمر ولا يخجل به، حيث الأولوية عنده للسياسة الداخلية التي طالما كانت في الولايات المتحدة أهم من السياسة الخارجية، لكن على يد أوباما باتت أهم بمرات عديدة. هناك ربما نوع من الانعزالية الجديدة للولايات المتحدة. الكل يعرف هذا الأمر لا أخترع البارود. لذلك نحمل السياسة الأميركية في المنطقة أكثر مما تحتمل. ولدى الولايات المتحدة نوع من البرغماتية حيث تجرب فكرة لا تنجح فتغيرها. تواصل التجريب ولا تستقر على حال. وهذا ما يظهر في موقفها من سوريا، في البداية كانت تقول كلاماً يوحي بأنها على وشك الانخراط بدعم الثورة السورية فعلاً ثم يظهر العكس. يتخذون قراراً بالتسليح ولاحقاً لا يقومون بذلك. هذا قدر من التخبط.

في أوروبا هناك قدر أقل من التخبط، لكن في أوروبا هناك نوع من المعادلة غير المكتوبة في المنطقة العربية حيث كان الدور الأوروبي فيها ضعيفاً قياساً بالدور الأميركي. هذه منطقة كانت تصنف في خانة أميركا، وليعود لأوروبا دور كبير في المنطقة الأمر يحتاج الى وقت ولا يتم بسرعة. إذا افترضنا أن دولة مثل فرنسا تريد التأثير بدعم الثورة السورية ترى حدود ذلك. في ليبيا الدول الأوروبية معنية جداً، لأسباب تتعلق بأمنها ومصالحها الاقتصادية وتدفق المهاجرين غير الشرعيين من أفريقيا إلى أوروبا عن طريق ليبيا، يهمها أن تنجح العملية الديموقراطية في ليبيا ولكنها في الوقت نفسه ترى أن مصر ليست لديها بعد الإمكانات بمفردها، قدرات أوروبا في المنطقة محدودة قياساً بقدرات الولايات المتحدة".

*** لكن في الإجمال يبقى الاعتدال في المنطقة أكثر رسوخاً باعتبار أن له جذوراً بخلاف التطرف؟**

— "يفترض. أصلاً هذا التطرف لا يمكنه أن يعيش طويلاً. لا يقيم أنظمة ولا يفتح مدارس ولا مستشفيات ولا يطعم الناس، فالناس لا يأكلون رشاشات وإعدامات وشعارات. طبيعة عمل المجموعات الراديكالية تحكم عليها بالبقاء مجموعات صغيرة ومن غير الممكن أن تتحول إلى تيارات جماهيرية، لأنها قائمة على العمل السرّي. كل منطقها يحكم عليها بأن تبقى أقليات، لكن أقليات قادرة على التخريب، لا أقليات يمكن تهميشها بالسياسة بسهولة".

(٢) سعد الدين الهلالي
عمّار علي حسن

«وسطيّة» الإسلام و«محبّة» المسيحية
أساس الاعتدال العربي

تعبّر التجربة المصرية الاخيرة عن حجم الصراع بين الاسلامَين المعتدل والمتطرف، وهي تختصر واقع الحال في العالم العربي عموماً. في هذه الحلقة آراء مفكريَن من كبار مفكري مصر اللذين عرضا بإسهاب لوجهة نظرهما إزاء واقع الاسلام والاعتدال في "أم الدنيا".

الأول استاذ الفقه المقارن في جامعة الازهر وممثل الازهر في لجنة الخمسين لتعديل الدستور الدكتور سعد الدين الهلالي، والثاني الدكتور عمار علي حسن.

سعد الدين الهلالي: التطرف الديني

عندما يمسّ الآخر يصبح جريمة

* في الزمن الذي يعلو صوت التطرف خصوصا في ظل الربيع العربي، كيف يمكن حماية الاعتدال برأيكم؟

— "المصطلحان مرسلان، مصطلح التطرف ومصطلح الاعتدال، كيف تضبط المصطلح حتى يمكن أن تحكم عليه، عجيب أن ترى انشقاق المجتمع إلى اتجاهين، فكل اتجاه يرى الآخر متطرفاً ويرى نفسه معتدلاً.

التطرف الديني في حقيقته لا يضر أحداً، أما إذا مسّ الآخر صار جريمة، كذلك

الاعتدال لا يضر أحداً أما إن مس الآخر فيصبح جريمة. ولو كان المقصود بالتطرف هو التزام الإنسان في أداء العبادات، فهذا لا يضير أحداً، لكن إن كان أداء الإنسان لعباداته على حساب مصالح الناس فهذا غير مقبول، كأن يقصر موظف في أداء عمله بحجة أنه صائم.

القاعدة الفقهية لا ضرر ولا ضرار هي الحكم والفيصل في الموضوع.

أما إن نظرنا إلى قضيتي التطرف والاعتدال، من زاوية محاولة فرض طرف ما رأيه وفهمه للدين على الآخرين، فهنا نكون قد دخلنا في إطار مفهوم آخر، وهو ولاية الفقيه، ويندرج تحته التسلط الفقهي والتسلط الديني. فيرى من يعتنق هذا الفكر أنه يعبر عن الدين الإسلامي وغيره يعبر عن الباطل ومن واجبه محاربة الباطل. فهل الإسلام يعطي المسلم صلاحية الاعتداء على الآخر؟ لو قبلنا بذلك فإن الآخر أيضاً من حقه أن يعتدي على من اعتدى عليه، وهو ما يأتي في باب التدافع، الذي قال فيه الله تعالى: " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين".

إن حماية الاعتدال تكون في الفيء إلى الحق والعدل الذي اتفق عليه الفقهاء، حين قالوا: لا إنكار في المختلف فيه. أي حين تكون المسألة سياسية فلا يجوز لك أن تنكر عليّ أني اتخذت الرأي الذي يخالف رأيك، أيضاً قاعدة: المجتهد يعمل باجتهاد نفسه. فلا يحق لأحد أن يلزم مجتهداً بعكس قناعته. فإذا كنت أنت مجتهد وأنا مجتهد، فلا يحق لك أن تخطئني في نفسي ولكن لك الحق في أن تخطئني في اختيارك، أي أن لا تختار اجتهادي لنفسك، فأنت حر في اجتهادك لنفسك كما أنا حر في اجتهادي لنفسي.

❋ ما هو الدور الذي يلعبه الأزهر في هذا الصدد خصوصا أنه أعد وثائق مهمة في هذا الخصوص؟

– "يؤسفني أنني استمع إلى هذا السؤال كثيراً، وأنا أرى أن صاحب هذا السؤال هو أحد شخصين، الشخص الأول يظن أن الأزهر مؤسسة أمنية مثل الشرطة والجيش، وهذا غير صحيح، فالأزهر مؤسسة علمية. والشخص الثاني هو من يظن أن

للأزهر ولاية فقهية، بمعنى أن الفقيه إن اقتنع برأي فعليه أن يلجم الآخر وأن يسكته ويلزمه بما يرى، والأزهر في حقيقة الأمر يقوم بدراسة الأحكام من خلال المذاهب والرؤى الفقهية المختلفة ويحترم كل وجهات النظر الفقهية ويعلمها لطلابه ويتركهم يعيشون حياتهم على ضوء ما تعلموه من الآراء الفقهية المختلفة. فالأزهر ليس صاحب ولاية فقهية ولا صاحب ولاية أمنية، الأزهر يقوم بالتعليم وهذا دوره.

وأنا حزين من الإلحاح على الأزهر بهذا السؤال، وكأن المطلوب إعلاء مبدأ ولاية الفقيه، وأنا أتمنى أن نترك الناس كما تركهم القرآن، فلا إكراه في الدين، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لا يصح أن نلزم الآخر بشيء إلا في حالة الضرر، والأضرار لا يصح أن يعاقب عليها إلا إذا بنص قانوني، فلا تجريم إلا بقانون.

ومطلوب من الأزهر التنوير، والتنوير الدائم وليس المرحلي، وأشدد هنا على أن الإتجاه الآخر الذي يحاول أن يفرض وجهة نظره ليس بريئاً بكل أوجه البراءة، فقد يكون جماعة مجندة من أجل بلبلة المجتمع، ومن أجل إيجاد نظير للأزهر.

فأنا أعجب كل العجب من مصر وشأن مصر، التي احتضنت الأزهر منذ أكثر من 1060 سنة، والأزهر طوال تاريخه يستقبل كل طالب علم، فالأزهر في مصر مثل النيل، وكما يسقي النيل الماء العذب للناس دون كلفة، يسقي الأزهر العلم المجرد المحايد للناس بدون كلفة. وسبب عجبي أن مصر نشأت فيها جماعتان إسلاميتان في عشرينات القرن الماضي، واحدة إخوانية وواحدة سلفية، وهنا أتساءل، هل نحن بحاجة إلى جماعة تعلم الفقه والدين في ظل وجود الأزهر الذي يغطي بعلمه ربوع العالم؟!.

إن هاتين الجماعتين إما لا تعترفان بوجود الأزهر أو تعترفان بوجوده ولا تعترفان بأثره، وتريدان منهجاً آخر غير منهج الأزهر، واتضح فيما بعد أن منهجهما هو منهج حشد وتجنيد، بمعنى أن من يدخل في إحدى هاتين الجماعتين، يتم توجيهه واقتياده في حياته وفي السياسة من قبلهما، أي أن العضو في أي منهما لا يفكر بعقله بل يفكر بعقل أميره في الجماعة.

والأزهر تتبع له 73 كلية، غير آلاف المعاهد الأزهرية على مستوى الجمهورية، ويُخرّج سنوياً قرابة المليون طالب، كيف يمكن أن تنشأ في مصر جماعات بحجة أنها تدعو إلى الدين في ظل وجود هذا الصرح العظيم الذي إسمه الأزهر؟! هذا لا يمكن فهمه إلا في إطار أن هذه الجماعات لديها أجندة سياسية لا دعوية".

❋ أيهما أقوى عند العرب: جذور التطرف أم جذور الاعتدال؟

– "من قراءتي ودراستي للمذاهب السنية الأربعة، وجدت في داخل كل مذهب اختلافات فقهية بعضها فيه تشدد وبعضها فيه اعتدال، وهذا لا ينفي أن الاعتدال والتيسير يتفقان مع الفطرة الإنسانية، وتنوع المذاهب الفقهية هو دليل على أنه كان دائماً هناك متسع لتنوع الآراء في التاريخ العربي الإسلامي، لذلك فإن جذور الاعتدال هي الأقوى والأقرب إلى الفطرة الإنسانية من التطرف".

❋ كيف يمكن إعادة تظهير وتفعيل حالة الاعتدال في العالم العربي؟

– "إن محاولة فرض وجهة نظر معينة أو فهم معين للدين على الناس هو نوع من أنواع العدوان، ويجب أن يواجه على هذا الأساس، بأنه اعتداء على الناس وعلى حقها في اعتناق ما تشاء، وهذا يترافق مع ما تحدثنا عنه من ضرورة التنوير الدائم".

❋ ما هي أسباب الحالات التكفيرية المنتشرة في ظل الربيع العربي.. وكيف يمكن مواجهتها؟

– "المشكلة في نشوء الحالات التكفيرية هو أن هناك من يدفع لهذه الجماعات التكفيرية ويدعمها ويقويها، ولو تركت المجتمعات على طبيعتها دون تدخل لما حصل ما نشاهده اليوم من قتل وإرهاب".

❋ المجتمع الغربي ينظر الى العرب والمسلمين بوصفهم رمزا للارهاب والتطرف في العالم.. كيف يمكن تصحيح هذه الصورة؟

– "في البداية لا بد من التأكيد على أن الغرب هو السبب في نشوء التطرف

والإرهاب في العالم العربي، ولو نظرت إلى التنظيم الدولي لجماعة "الإخوان المسلمين" ستجد أن مقره في لندن، كما أن الكثير من العواصم الغربية تحتضن التكفيريين وتتيح لهم المجال للعمل والنشاط، فكيف لمن يبشر ويدعو إلى الديمقراطية أن يحتضن هذه الجماعات ويساعدها؟!.

– لا بد من تعريف الناس العاديين في الغرب بحقيقة الإسلام السمحة، وتصحيح الصورة الظالمة عنه التي تسببت بها أفعال تلك الجماعات التي تنسب نفسها إلى الإسلام وهو بريء منها".

❋ كيف تقوّم حال الاعتدال في مصر في ضوء تجربة الثورتين؟

– "لو احتمل بعضنا بعضاً في مصر لما كان هناك مجال للحديث عن التطرف والاعتدال. لكن كيف نتحدث عن الاعتدال في ظل وجود من يكفر الآخر، مثل الأحزاب التي تسمي نفسها إسلامية، والتي وضعت برنامجاً من أمخاخها وأفكارها ونسبته إلى الإسلام. وأنا لا أناقش هنا مدى صوابية وصحة أفكارها، وحسبي أن أقول بأنها بشرية، إن كانت صوابا فهي تحتمل الخطأ وإن كانت خطأ فهي تحتمل الصواب، ثم تقوم هذه الجماعات بالترويج للبرنامج الذي وضعوه بأيديهم على أنه مشروع إسلامي، والله تعالى يقول: "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون".

إن الإسلام عبارة عن نص، كتاب وسنة، والنص لا يطبق بذاته فما يطبق هو ما فهمناه من النص، وفهمنا للنص متعدد، فمن ذا الذي باستطاعته أن يحسم هذه المفهوم ويحدد أيها أصح؟.

وأنا أدعو من يتكلم عن الإسلام بالفهم أن يكون صادقاً مع الناس ويقول لهم هذا من عندي وهو فهمي ولا ينسبه للإسلام، ونسبه إلى الإسلام هو كذب على الله. والله يقول: "ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم". لماذا لا يصدق هؤلاء مع أنفسهم ومع الناس، وإن أبسط الحقوق هو الصدق".

عمّار علي حسن: الروح المصرية

لفظت تجربة "الإخوان المسلمين"

* لمحة عن الاعتدال في العالم العربي؟

– "فكرة الاعتدال في العالم العربي مرتبطة إلى حد كبير بالفكرة السائدة في الفقه الإسلامي التي تتحدث عن الوسطية، وفي المسيحية التي تتحدث عن المحبة، وبالتالي تعتبر قيم الوسطية والمحبة هي المسطرة التي يقاس عليها في ثقافتنا الاعتدال من عدمه.

ولكل واحدة من هاتين القيمتين، الاعتدال والمحبة، بعض المؤشرات والركائز والاستدلالات والتبريرات الموجودة سواء في الفقه أو في اللاهوت، والشخصية العربية بطبعها تتحدث عن الوسطية أو الاعتدال بوصفها حلماً، يبدو بعيد المنال كلما أوغلنا في مزيد من التطرف الديني أو السياسي، في ظل صراعات لا تنتهي على السلطة، وغياب استقرار الحكم الديمقراطي حتى هذه اللحظة.

ومن هنا يمكن القول، إن الاعتدال في العالم العربي في اعتلال، نتيجة هزيمة كبيرة للتفكير الديني الوسطي ومصادرة حق الاجتهاد وعدم استقرار الحكم الديمقراطي حتى الآن، ونزوع اجتماعي يراوح بين القبلية والطائفية والتحزب، ووجود أشكال متدرجة من التعصب، سواء للأسرة أو الطائفة أو القبيلة أو للفريق الرياضي وهكذا".

* جذور الاعتدال في مصر؟

– "أما عن جذور الاعتدال في مصر، فأنا أتصور أنها تعود إلى بداية نشأة الدولة المصرية، ومن يطالع الأدب المصري القديم الذي سجلته البرديات وجدران المعابد، يكتشف أن الشخصية المصرية بطبعها شخصية تنزع نحو الاعتدال والتسامح، واشتهر المصريون دائما بأنهم يهضمون الثقافات الوافدة ويتفاعلون معها بنعومة وعبر زمن طويل تفاعلاً خلاقاً دون صدام. وربما هذا نتيجة لوجود الدين

والأرض معاً في نشأة الدولة المصرية، وكلاهما يدعو إلى الاعتدال. الدين الذي كان في أيام الفراعنة يبحث عن الخلود، ومن ثم يدعو إلى التواضع وضرورة فعل الخير لأن هناك حسابا في الآخرة، والأرض التي تحتاج إلى الصبر والدأب والتعاون بين الفلاحين في مواجهة الأخطار التي تحدق بعملية الري. وفي كل فترة كانت تأتي أفكار متطرفة وغير معتدلة وتهب رياحها على الشخصية المصرية، سرعان ما كان يتم تطويقها ولفظها والتخلص منها، ولدينا موجات متلاحقة من الاستنارة التي واجهت الظلام، ومن الأفكار المعتدلة التي قاومت التطرف.

نعم، لم يمت التطرف في مصر طوال التاريخ، ولكنه كان دائماً يواجه نفوراً من القاعدة الشعبية العريضة، ومن ثم يُنظر إلى مصر باعتبارها وثيقة من جلد رقيق، الإنجيل مكتوب فيها فوق هيرودوت وفوقه القرآن، وتحت الجميع تُقرأ الكتابة القديمة بوضوح وجلاء. والفلكلور المصري أو الموروث الشعبي المصري ينزع هو الآخر نحو فكرة الاعتدال، لأنه خلاصة الطبقات الحضارية، الفرعونية والقبطية والإسلامية، يحتضنها ويحتفي بها ويحافظ على استمرارها، ويرفض أي آراء أو اتجاهات غير معتدلة تحاول أن تجور عليها أو تذيبها أو تستبعدها أو تقصيها.

وفي مصر الحديثة والمعاصرة، يمكن أن نتحدث في الاعتدال عن تراث المفكرين الليبراليين الذين طالبوا بالتعددية والتسامح وتداول الحكم وقبول الآخر، نتحدث هنا عن طه حسين وعن سلامة موسى، والإمام محمد عبده الذي كان يحضر محاضراته المسيحيون، حتى في لبنان في فترة نفيه إليه.

وجاءت جماعة "الإخوان المسلمين" وأرادت أن تأتي على هذا الاعتدال، وجربت ذلك لزمن طويل، وخرجت من تحت عباءتها جماعات دينية عديدة جداً جانحة ومتطرفة، ولكن الشعب المصري لفظها جميعاً كما رأينا في الشهور الأخيرة. والهزيمة الحقيقية لهم لم تكن في الإطاحة بحكمهم، ولكنها كانت بأن لفظت الروح المصرية التطرف وهذا التفكير لفظاً شديداً، ونزعت عنه القشرة الزائفة من الجلال، وأزاحته من مساحة المقدس إلى المدنّس. ويظهر ذلك في النكات التي تطلق على "الإخوان"، والكاريكاتورات التي ترسم عنهم، والتي لا علاقة لها في الصورة القديمة التي كانت مرسومة في أذهان المصريين عنهم في عهد مبارك.

لقد تساوق التدين الشعبي المصري والروح المصرية المعتدلة، وتفاعلا مع "الإخوان المسلمين" في البداية لأنهم كانوا يطرحون أنفسهم باعتبارهم تياراً معتدلاً متكيّفاً مع الثقافة المصرية، يختلف عن أولئك الذين حملوا السلاح، وعندما أثبتوا عكس ذلك، فعل هذا الاعتدال الكامن في الروح المصرية فعله، وتحرك المجتمع ضدهم وأطاح بحكمهم".

*** واقع التطرف في مصر حالياً وما هي أسبابه؟**

– "التطرف الديني له أسباب كامنة في التأويل الفاسد للنص الديني، وفي إزاحة الإسلام النصي والتعامل فقط مع الإسلام التاريخي، وإضفاء التقديس على مقولات البشر، وإزاحة الوحي لحساب التأويل ولحساب التاريخ. حين نقرأ الأسانيد التي يعود لها المتطرفون في تبرير العنف وتكفير الآخر أو تفسيقه، نجد أنها تعود إلى آراء تاريخية يتم التعاطي معها باعتبارها مقدسة بما في ذلك آراء الفقهاء، التي كانت إجابة على أسئلة واقعهم ولا تصلح لواقعنا الذي تغير.

هذا سبب، وهناك أسباب أخرى، منها تردي الأوضاع الاقتصادية، والفساد السياسي، وفشل العملية التعليمية في العالم العربي، وهي عملية تخاطب الذاكرة ولا تخاطب الفهم والإدراك والإبداع، ومن ثم يستطيع التيار الديني أن يجند أنصاره بسهولة لأنهم مجموعة من الحافظين، فلو كانوا فاهمين ومدركين ومبدعين ولو تكونوا تكويناً علمياً سليماً في المدارس لما انطلت عليهم أفكار هذا التيار المتطرف. وهناك أسباب لها علاقة بالصراع المادي أو الحضاري أو صراع القوة الموجود بين الغرب والشرق، الغرب يتمدد ويدافع عن مصالحه، فتظهر آراء في الشرق ترى أن مواجهة الغرب تكون فقط بالاستعانة بالدين وأمجاد المسلمين القدامى، وفي الواقع للتطرف حزمة من الأسباب وليس سبباً واحداً".

*** هل الاعتدال في خطر في ظل تنامي الحركات التكفيرية؟**

– "الاعتدال سيظل موجوداً، علينا أن نفرّق بين موقف واتجاه التيار الرئيسي في أي بلد وبين الجماعات المتناثرة على ضفاف هذا التيار، أنا لا يشغلني أن يوجد في بلد عربي ما متطرفون أو إرهابيون أو تكفيريون، أنا أنشغل لا بل وأبتئس حين

أرى أن التيار الرئيسي في ذلك البلد قد أصيب بالتطرف والجمود، هذا هو الخطر في حد ذاته. وأنا أعتقد أن التيار الرئيسي في البلدان العربية ينزع نحو الاعتدال، بدليل أنه حين وُضِعت التيارات المتطرفة، سواء لأسباب دينية أو طائفية أو قبلية، في موضوع الاختبار، لفظتها المجتمعات العربية.

حتى في الخليج، الإنسان الخليجي لديه نزوع شديد لأن يعيش مباهج الدنيا في ظل الوفورات المالية الكبيرة التي تمتعت بها بلاده بعد الطفرة النفطية، حتى السلطة في الخليج الآن تبحث عن خطاب ديني معتدل تقاوم به الخطاب الديني المتطرف، بدليل أن المملكة العربية السعودية التي احتفت بالإخوان في الخمسينيات والستينيات، واستعملتهم في مواجهة مشروع جمال عبد الناصر، هي ذاتها التي تقاومهم الآن وتقف في الصف الأول ضد تمددهم وتعتبر أنهم يشكلون خطراً عليها، الأمر ذاته في الإمارات وفي الكويت".

*** كيف يمكن إعادة الروح إلى الاعتدال؟ وما مصيره برأيكم في ظل صعود نجم الإرهاب في العالم؟**

– "إعادة الاعتبار إلى روح الاعتدال يكون عبر العمل على عدة محاور، أولها وأهمها هو التعليم، فإذا قلنا ان الهدف التقليدي من التعليم تعبّر عنه المقولة: نتعلم لنعمل، فالتعليم الذي نصبو إليه يجب أن تعبر عنه كذلك المقولة: نتعلم لنتعايش ونتعلم لنعتدل. وهذا يتطلب أن لا تركز مناهج التعليم على المسائل الخاصة بمخاطبة الذاكرة، فالذاكرة هي أردأ ملكات العقل، بل تخاطب ما هو أرقى من الذاكرة، وتخلق عقولاً مبدعة، فالعقل الذي يتم تكوينه بشكل علمي لا يمكن أن يقبل أفكار المتطرفين لأنها متهافتة وضعيفة وضحلة، وتعتمد على اصطياد اولئك الببغاوات الذين يرددون كلاماً لا يفهمون معناه. وهناك محاور أخرى هامة كالثقافة التي يجب أن تلتفت إليها الدولة وتنفق عليها بشكل لائق، كذلك المجتمع المدني، والاهتمام بالمؤسسات الدينية الوسطية التي يجب أن يتعاظم دورها، كما أن للإعلام دوراً هاماً على هذا الصعيد".

*** ما هو تقييمكم لواقع الاعتدال في لبنان في ظل "حزب الله"؟**

– "الشخصية اللبنانية بطبعها شخصية تميل إلى الاحتفاء بالبهجة وتعيش

ملذات الدنيا، وترفض العنف، وهذه الروح هي سبب استمرار لبنان كدولة على قيد الحياة حتى اليوم، رغم أن ملوك الطوائف جميعاً ودون استثناء يشحذون المجتمع لصراع مكتوم، وأحياناً ينفجر كما حدث في الحرب الأهلية اللبنانية. والشخصية اللبنانية هي التي تصدّت لهؤلاء وانتصرت إرادتها حين أصرّت على أن تعيش، وتوقف نزيف الدم.

لكن الذين يريدون الاتيان على الاعتدال في لبنان والقضاء عليه، لن يتوقفوا ويجهض مشروعهم، إلا إذا تراجع الوزن النسبي للطائفة في تفكير اللبناني وفي تصرفاته وفي اتجاهاته، لصالح الكيان الأم، أي وجود دولة وطنية ينصهر فيها الجميع. وهذا ربما يحتاج إلى وقت من خلال التعليم والثقافة، ولكن لابد أن يظهر جيل لبناني جديد يفارق فكرة الطائفية ويفارق التعصب للطائفة. والدولة عليها أن تبدأ العمل، وتنتهي من نظام المحاصصة الطائفية التي يقرها الدستور اللبناني في النظام السياسي وفي الوظائف والمعشّشة في أذهان النخبة اللبنانية.

وملوك الطوائف ليس من مصلحتهم إذابة الحدود الطائفية داخل المجتمع، لأن هذه الحدود هي التي تعطيهم مكانة وتعطيهم ثروة وتبقي السلطة في أيديهم. ومطلوب من الجيل اللبناني الجديد أن يتغلّب على هذه الحمولات.

وعلى الرغم من الجراح الكبيرة التي تعاني منها سوريا، إلا أني أعتقد أنه حين تتعافى الدولة السورية من جراحها وتدخل إلى زمن جديد وترفع قبضتها التي تغذي الطائفية في لبنان، سيصبح السؤال أمام العقل اللبناني إلى متى تعشّش فينا الطائفية؟ ومجرد طرح هذا السؤال هو بداية الخروج من الزمن الطائفي، وهذا قد يستغرق وقتاً ولكنه ليس مستحيلاً. فالمجتمع الذي يحاول أن يتجاوز الطائفية في الزواج المدني يستطيع أن يوسّع فكرة الزواج المدني لتتجاوز العلاقة بين رجل وامرأة وتصبح علاقة بين شعب طائفة وشعب طائفة أخرى".

(٣) عصام خليفة

دولة الاعتدال سقطت عام ١٩٦٩
والطائف أعاد بناءها

يقارب المفكر والمؤرخ الدكتور عصام خليفة جذور الاعتدال في لبنان في لمحة تاريخية لامست محطات اساسية تجلى فيها الاعتدال كمرتكز من مرتكزات النظام اللبناني، الذي جاء نتاجاً للتعددية الطائفية التي انجبته وانجبت معه الديموقراطية، من دون ان يتجاهل بعض مظاهر التطرف والعنف التي تفشّت بين الطوائف من جهة، تماماً كما تفشّت داخل كل من هذه الطوائف نفسها، من جهة ثانية.

ويعرض خليفة للمحطات التي ضربت اعتدال لبنان وحياده، واهمها اتفاق القاهرة الذي "سقطت من بعده دولة الاعتدال في العام 1969". ويعتبر ان اتفاق الطائف كان محطة لاعادة بناء الاعتدال والدولة في لبنان، لكن النظام السوري الذي فعل ما فعله في التركيبة اللبنانية ذهب الى اعتماد "معادلة اللااستقرار" ليبرر دوراً له في "الاستقرار" اللبناني.

هنا نص الحوار:

❋ لمحة عن جذور الاعتدال في لبنان من وجهة نظر تاريخية وجغرافية؟

- "فرض تكوين لبنان الديموغرافي الاجتماعي السياسي، المرتكز أصلاً على التكوين الجغرافي، الاعتدال، لأن الناس عندما أتوا الى هذه الأرض كانوا يريدون ممارسة حرياتهم هاربين من السلطة المركزية في الداخل، ولجأوا الى الواقع الجغرافي الذي هو الجبال كي يمارسوا هذه الحريات، ففرض عليهم العيش المشترك بين طوائف

متعددة وبين مجموعات متعددة مبدأ تقبّل الآخر، والاعتدال. هناك نص للرحّالة ابن جبير في القرن الثاني عشر يقول إنه مرّ في جبل لبنان وسمع الناس من طوائف متعددة يتحدثون بلغات متعددة بين بعضهم البعض، وتعجّب كيف أن المسلمين والمسيحيين يعيشون مع بعضهم البعض، ويتبادلون الطعام. هذا دليل أن الناس ليسوا محكومين دائماً بالحروب والنزاعات، والبرهان على ذلك أن هناك قرى على امتداد تاريخنا وجغرافيتنا كانت مختلطة، ولكي تكون القرى مختلطة يجب أن يكون هناك عيش مشترك واعتدال، لكن هذا لا يدفعني الى تبسيط التاريخ والقول إن العنف أو التطرّف ليس موجوداً. كان العنف موجوداً ضمن الطوائف وبين الطوائف، وليس بالضرورة أن يكون ناتجاً عن الدين بل عن الواقع الجغرافي أيضاً، أي أن صراعات كانت تحصل بين "معّازة" من قرية مارونية وبين "معّازة" آخرين من قرية مارونية أخرى، وأيضاً بين الطوائف. العنف تفاقم في المرحلة المملوكية حيث حصلت اجتياحات من قبل القوات المملوكية لجبل لبنان فهاجموا كسروان حيث كان هناك شيعة وموارنة، كما هاجموا جبة بشري أيضاً ضمن ما يسمّى الحملات المملوكية. هذه مرحلة مظلمة في تاريخنا، وهذا ما يمكن أن نفهمه في سياق الردّ على الحملات الصليبية حيث إنه في هذه الفترة استمر التعايش، وديموغرافياً استمر التعايش في قرى متنوعة، وساد في معظم المناطق عشية انتهاء الحكم المملوكي ومجيء الحكم العثماني، مثل منطقة البترون وقرى عديدة مختلطة في الكورة وطرابلس، فكان ثلث سكان طرابلس من النصارى واليهود، حتى أن اليهود الذين طردوا من إسبانيا جاؤوا الى طرابلس وإلى المدن الساحلية اللبنانية. هذا دليل إضافي على قبول التعدّد السكاني".

ويضيف خليفة: "كما شهدت الفترة العثمانية نمواً ديموغرافياً مسيحياً لا بل ثمة مناطق تزايد فيها التواجد المسيحي مقابل التناقص الإسلامي في ظل الحكم العثماني، على الرغم من أنه كان هناك استنزاف ديموغرافي من قبل السلطة العثمانية التي كانت تجنّد المسلمين ولا تجنّد المسيحيين. وقد توافر الاستقرار في الفترة العثمانية الأولى، لكن مع ضعف الدولة العثمانية تزايدت الصراعات في المناطق، وأصبحت الدولة

العثمانية في إدارتها للمناطق تكتفي بإدارة الصراعات، وتظهر وثائق في المحاكم الشرعية حرصاً عثمانياً على إعادة المهجرين وإعادة الاستقرار والأمن. لكن في النهاية كان هناك قدر من الهجرة بسبب الظلم في هذه المنطقة، إذ إن العنف موجود فينا كشرقيين أيضاً.

إذاً هناك اعتدال وعنف تبعاً لعوامل طبيعية، فحيث يسود الجوع والبرد والجفاف مثلاً يحصل العنف. قبائل تهاجم قبائل أخرى. في الوثائق العثمانية اطلعت عن كثب على صدامات حصلت في بيروت مثلاً بين مؤيدي "القرنفلة الحمراء" ومؤيدي "القرنفلة البيضاء"، أي قيسي ويمني، القيسيين واليمنيين (من طوائف مختلفة لكن الأرجح كانوا من الروافض أي شيعة) وفي التقرير أن مئات من القتلى وقعوا في الصدامات الدموية، هذا عنف وليس اعتدالاً".

نحن أمام جدلية الاعتدال والعنف، يسيران جنباً الى جنب، وفي تاريخنا كعرب انقسمت القبائل الى قيسي ويمني، واستمر هذا الانقسام لاحقاً. وعشائر جبل لبنان الدرزية والشيعية والمارونية طالها هذا الانقسام (القيسية واليمنية)، والفرضية الحزبية بحسب ما كانوا يسمّونها في ذلك الوقت لم تكن بين مسلمين ومسيحيين بل اختلاف بين مجموعات من طوائف عدة. الاعتدال استمر في العيش المشترك من خلال أدبيات السلوك اليومي، والاجتهادات إن كان من قبل المسلمين أو المسيحيين. في الفقه الإسلامي هناك الكثير من النصوص التي تدعو الى الاعتدال، والإسلام قام على الاعتدال، كدين وممارسة، والمسيحية أيضاً قامت في الأساس على الرجاء والتسامح ومحبة الآخر، هذا هو جوهر الأديان أي أن جوهر الأديان قائم على الاعتدال. أما ظواهر العنف فهي نتاج عوامل اقتصادية اجتماعية سيكولوجية مناخية صراعية بين العصبيات المختلفة".

العاميات: تكتل الطوائف ضدّ المحتّل

ويتابع خليفة: "بعد قيام العاميات في بداية القرن التاسع عشر وفي الجزء الثاني، أصبح هناك تمفصل في الأزمات ضمن الطوائف وبين الطوائف، ضمن

الأحزاب القائمة، وصراع إقليمي، أي اندلاع فتن ضمن المناطق، (حرب طاحنة في قرنايل بين الأعوريين والهلاليين أدّت الى تهجير الناس من قريتهم ضمن الطائفة الواحدة). كما وقعت حرب سنة 1856 بين بشري وإهدن، فدعم الإنكليز زعامة آل الخوري في بشري والفرنسيون دعموا بطرس كرم في إهدن. هذا العنف لم يكن ناتجاً فقط عن عوامل داخلية بل عن تمفصل عوامل داخلية إقليمية ودولية، حيث قال وزير الخارجية العثماني صارم أفندي: "يجب القضاء على الدروز والموارنة في سوريا من خلال إثارة الفتن بين بعضهم البعض، لأنهم سبب فتنة في سوريا". والتقارير الديبلوماسية الفرنسية تتحدث عن حواجز من المقاتلين الجبليين الأشداء، والأمير بشير أرسل مقاتلين الى دمشق لفصل القوات وتمركزت جيوشه في المزة، أي أنه كان قوة إقليمية. ما أريد قوله هنا أنه في ظل الائتلاف والاعتدال والتحالف بين اللبنانيين من كل الطوائف والعاميات (عامية انطلياس الأولى والثانية وعامية لحفد) ضد الضرائب حيث تكتّلت الطوائف ضد الضرائب وضد المحتل الخارجي. هذا يسمى اعتدالاً داخلياً ائتلافياً بين الفئات الاجتماعية وعنفاً ضد السلطة المتحكمة أو المحتلّة. في الثقافة أيضاً هناك انفتاح واعتدال في دعوات أمثال بطرس البستاني الذي شيّد مدرسة وكان ضد العنف الذي حصل في الفتن الطائفية ودعا الى الوئام والوطنية. حتى يوسف بك كرم رغم ما يتهم به، تنمّ رسائله عن وطنية ورفض للعنف وللتسويات الدولية. هناك لبنانيون لعبوا دوراً في السلطة العثمانية تحت عنوان التنوير والاعتدال والحداثة: هناك شخصية مهمة لا أحد يذكرها هو خليل غانم، وهو أحد الأربعة الذين شاركوا في وضع الدستور العثماني سنة 1876، وهو لبناني ماروني من بيروت وكان ترجماناً للوالي العثماني في دمشق واستدعاه الى استانبول وعيّنه لثقافته الواسعة عضواً في لجنة الدستور العثماني. أصل خليل غانم من لحفد كان ضد السلطان عبدالحميد لإنقلابه على الدستور، فهاجر الى باريس واستمر في الكتابة في الصحف الباريسية وكان من زعماء الحركة الإصلاحية في الدولة العثمانية، وترأس المؤتمرات العديدة قبل أن يتوفى سنة 1905: كان رئيس المؤتمر الإصلاحي العثماني سنة 1902، فربط الاعتدال بالحداثة والتجديد والنهضة، وأيضاً أحمد فارس الشدياق (خرّيج مدرسة عين ورقة وشقيقه أسعد) توفي في قنوبين في أحد الأديرة،

كان يريد تفسير الإنجيل والتوراة تفسيراً حديثاً. كانت هناك قوى محافظة، إلا أن الصراع ضمن الكنيسة كان موجوداً. المطران اسطفان كان قائد الحركات الفلاحية، في الوقت نفسه كان هناك بطريرك متشدد هو يوسف حبيش، عرفت الكنيسة حداثة وتجدداً واعتدالاً من جهة ومحافظة وتشدداً من جهة ثانية.

كما في الطوائف الأخرى نماذج من أوائل القرن العشرين من أمثال المجتهد الكبير محسن الأمين الذي كان مرجعاً لسنّة الشام وهو شيعي من جنوب لبنان. كان يسكن في دمشق. يروي عنه السيد هاني فحص أن أحد السنّة أتى إليه كي يتشيّع، فقال له ماذا أقول؟ قال: "أن لا إله إلا الله" أي على طريقة السنّة، قال نعم، إذ لا فرق كبير بين الجهتين. ويروى عنه أنه مرّ ذات يوم في شتورة، فوقفت سيارة أمامه وعرض صاحبها عليه أن يشتري النبيذ، فلم يخذله، اشترى النبيذ ولم يشرب منه، حرصاً منه على تأكيد تقبّله للآخر".

ليس صحيحاً أن كل الدروز هاجموا كل النصارى

ويتطرق خليفة الى الفتن الطائفية فيقول: "حتى في الفتن الطائفية، ليس صحيحاً أن كل الدروز هاجموا كل النصارى، أو كل النصارى هاجموا كل الدروز. لديّ وثيقة تشير الى أن أهل صاليما (المتن الأعلى) وضعوا ميثاقاً (دروز وموارنة) مفاده أنه إذا هجم الدروز على القرية يقاتلهم الدروز وإذا هاجمها الموارنة يقاتلهم الموارنة، هذا مهمّ جداً. الاعتدال في نسيج الأمراء، أي الأمراء اللمعيين، الذين كانوا دروزاً ثم أصبحوا مسيحيين، الأمراء الشهابيون جزء منهم سنّي وجزء تنصّر. وكان الأمير بشير يرفض الحديث عن طائفة الأمير أو الكلام الطائفي. لا شك أن الأمير بشير كان ظالماً. هناك تقاطعات في بنية الإمارة بين الطوائف. هل من باب الصدفة أن في بيت الخازن جبّ جنبلاط؟ معنى ذلك أن ثمة تفاعلاً بين الأعيان. قبلان القاضي (درزي) يقول في وثيقة بيع أرض لدير المخلّص الكاثوليك: "يد وفرّغت لأختها"؛ كان يتميّز بروح الاعتدال، كان من زعماء الدروز قبل أن تصبح الزعامة لآل جنبلاط. ليس كل الشعب يقاتل كل الشعب. فهو عاش مئات السنين في ظل تعايش،

لكن الاقتتال يظهر لفترات ويجب درس أسبابه. يعني إذا وجد العنف لدى المسلمين يجب أن نسأل كم هي نسبته، 5٪، أو أقل، إذاً لِمَ لا نرى الـ95 الباقية؟ كذلك عند الشيعة وعند المسيحيين، لدى كل الطوائف.

في القرن العشرين ظهر تباين نسبي عندما انهارت الدولة العثمانية، فأصبح هناك في ظل الخارطة الجديدة التي نشأت في غياب السلطنة تيارات: مشروع دعا الى سوريا الكبرى العربية، مشروع آخر دعا الى سوريا الكبرى الفرنسية، ومشروع دعا الى لبنان الكبير، فيما تمسّك تيار آخر بلبنان الصغير.

كل تيار ضمّ شرائح من كل الطوائف، وكل تيار من هذه التيارات كان يضم أكثرية من طائفة معينة، أي مشروع سوريا الكبرى العربية كانت الأكثرية فيه إسلامية، وتحديداً سنّية، لبنان الكبير بأكثرية مسيحية وتحديداً مارونية. ما حصل أنه أنشئ لبنان الكبير، لكن الاعتدال المسيحي الذي كان يريد لبنان الكبير مع استقلال، تقارَبَ مع التيار الإسلامي الذي كان يريد لبنان الكبير مع صداقة مع العرب ولا يريد الانتداب. هذا التيار أصبح أكثرية في الثلاثينات. البطريرك إلياس الحويك شبّه فرنسا في ذلك الحين بالشمس التي تنوّرنا من بُعد وتحرقنا من قُرب. بدأ التيار المسيحي يطالب أكثر فأكثر بالاستقلال. التقى مع التيار الإسلامي الذي يرفض الانتداب، وهنا ظهر دور كاظم الصلح لـ"الاتصال والانفصال"، ودور يوسف السودا وقد تقاربا. وهنا قمة الاعتدال الذي كان أساس قيام الدولة حيث إن اجتماعات حصلت في منزل يوسف السودا سنة 1938 تتعلّق بالميثاق الوطني اللبناني للجلاء، وتوصّلت الى ميثاق مكتوب وقّعه عادل عسيران الشيعي، يوسف السودا المسيحي، رفيق البراج ومحمد خير الدين و32 شخصية لبنانية أخرى. الميثاق الوطني مكتوب، وقد أنشأ موقّعوه حزب الميثاق الوطني اللبناني وجوهره بناء دولة بين المسلمين والمسيحيين.

هذه الدولة تقوم كما يقول النص على "استقلال لبنان التام في حدوده الحاضرة وكيانه الجمهوري وحكمه الوطني، وتمتين الصلة بين لبنان والدول العربية حلف يضمن لكل منهم الاستقلال التام (تحالف وليس وصاية) والانتعاش الاقتصادي

والكرامة القومية، وإقامة المساواة بين اللبنانيين على قاعدة العدل والكفاءة لا على أساس الطائفية، وتوحيد الثقافة القومية والتعليم مجاناً وتعميم منهاج للتدريس تشرف الحكومة على تنفيذه، ويدعو الميثاق أيضاً الى اعتماد اللغة العربية لغة البلاد الرسمية، وتحقيق الحريات كاملة، حرية الصحافة والجمعيات والأحزاب، والاعتدال المجسّد في الحريات، (لا أحد يمكن أن يقمع أو يلغي الآخر). التعددية الطائفية أنتجت الاعتدال والديموقراطية. هذه فلسفة الاجتماع السياسي اللبناني".

إذاً يضيف خليفة: "أقرّ الميثاق الوطني في منزل يوسف السودا يوم الجمعة الواقع في 18 آذار 1938 في الساعة التاسعة مساء ليركّز الدولة بين مكوّناتها. ثم في 1943 أتى رياض الصلح وبشارة الخوري ليضعا ميثاقاً ثانياً وزّعوا فيه المناصب في الدولة، ووقّعت الأطراف من الطوائف كافة على وثيقة وأنشأت حزب "الميثاق الوطني" اللبناني، الذي نال ترخيصاً وأصدر بيانات وأنتج بيئة ثقافية فكرية. حتى إن مؤتمر بكركي العام 1941 تبنّى الميثاق في أيام البطريرك عريضة، حيث حصل التقارب الإسلامي المسيحي. واستمر حكم الدولة اللبنانية مع الرئيس الراحل فؤاد شهاب على نهج الاعتدال وبناء مؤسسات الدولة أي ألاّ تنحاز الدولة بل أن تكون محايدة عربياً، فنتفاهم مع الرئيس جمال عبدالناصر كقوة إقليمية لكن ضمن السياسة العربية، أما ضمن السياسة الداخلية فإن السلطة في يد الدولة اللبنانية.

حين حصل العنف في الستينات (1967)، كان على الدولة اللبنانية أن تدعم وضعها بصورة أخرى، من دون أن ننسى الظروف المحيطة ولا سيما العنف في المنطقة باعتبار أن إسرائيل كيان قائم على العنف والتوسع، فهي طامعة بالمياه ولم تقرّ بالمواثيق الدولية التي تنصّ على أن الدولة سيدة على أرضها. والوضع العربي لم يكن أفضل حالاً، فتهجّر الفلسطينيون الى لبنان مع العلم أن لبنان ليس ضد القضية الفلسطينية بل يلتزم بها، وممثل الثورة الفلسطينية في 1936 كان لبنانياً، من المتن، أعني بذلك رئيف خوري، الذي دافع في نيويورك عن القضية الفلسطينية، وأيضاً بولس عبود وعدد من المسيحيين واللبنانيين عموماً دافعوا عن القضية الفلسطينية لكن ليس على قاعدة إيجاد وطن بديل في بلدنا والتدخّل في شؤوننا

الداخلية، هذه هي المشكلة التي وقعت. أصبح لبنان خط تماس بين المسيحية والإسلام، كما وصفه صاموئيل هانتنغتون".

اتفاق القاهرة والحياد

أما مرحلة أو فكرة الحياد، فقد ضُربت برأي خليفة في 1968 "بسبب اتفاق القاهرة الذي تسبّب بخلل في الدولة اللبنانية حيث أصبح هناك فعل ورد فعل، تفكّكت الدولة. أصبح السنّة يعتبرون أن الفلسطينيين جيشهم، والموارنة تسلّحوا ولم تعد الدولة سقفهم، والحركة الوطنية راهنت على السلاح الفلسطيني وهذا خطأ، لأن في لبنان تكويناً خاصاً به لا يمكن تغييره بالعنف، والحرب الطاحنة (1975 ـ 1990) تسبّبت بخسائر قدرت بـ150 ألف قتيل و900 ألف مهجّر وخسائر اقتصادية. حين تنهار الدولة بين الطوائف يقوى العنف داخل الطوائف، الدولة تعني احتكار العنف من قبل السلطة، عندما لا يكون هناك دولة تحتكر العنف، كل شخص يحدث العنف وينص القوانين على مقاسه، وتتدمّر دولة القانون والمؤسسات حيث تصبح دولة "كل مين إيدو إلو". دولة الاعتدال سقطت عملياً في 1969 - 1970 واندلع العنف في 1975. كانت هناك مشاريع جهنمية لتفكيك الدولة وتفاهم سوري - إسرائيلي لتقاسم أرض الدولة، هؤلاء في الجنوب وأولئك في الشمال، ما سمّي حينذاك red line system (نظام الخطوط الحمر) الذي تحدّث عنه هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركية السابق في مذكراته.

بعد اتفاق الطائف، حصلت محاولات لإعادة بناء الدولة. تظاهرنا حينها ضد الحرب، كان هناك تيار مجتمع مدني (1986 - 1988) حيث وضعنا ميثاق انطلياس ونظّمنا تظاهرات مع الحركة النقابية في منطقة المتحف، ضمن نطاق تجمّع الهيئات الثقافية. كنا نسير وفق معادلتين: مقاومة العدو الإسرائيلي وانسحاب القوات السورية من لبنان. كل خارج يريد خلخلة بنية الوضع اللبنانية ليسوّغ تدخّله، ويكون مع العنف ضد تماسك البنية الداخلية التي تقوم على الاعتدال والتضامن والوحدة الوطنية بين كل المكونات. الطائف كان محطة لإعادة بناء هذا الاعتدال والدولة، لكن دخل على

الخط النظام السوري وبعده "حزب الله" وإسرائيل التي لا تريد دولة في لبنان، تقاطعت سياستها مع السياسة السورية التي تريد ضم لبنان الى سوريا. أصبح هناك صراع إقليمي على لبنان. في المرحلة الأولى، "حزب الله" وكل المقاومة في لبنان كانت مسوغة حتى انسحاب إسرائيل في العام 2000. كانت مقاومة تحت ظل القانون الدولي، ورغم أنه ما زال هناك جزء محتل من لبنان لكن لا يسوّغ أن تبقى المقاومة دولة ضمن الدولة. وهذا لا يمنع أن نستفيد من هذه الطاقة البشرية العسكرية، لكن أن تكون ضمن منظومة الاستراتيجية الدفاعية في المجتمع، كي يدافع كل الشعب اللبناني عن مصالحه، وليس جبهة شيعية، هنا تسقط المقاومة قبل أن تبدأ. إذاً فكرة الدولة انهارت، وبرأيي أن السوريين لعبوا لعبة في هذا الموضوع ضمن الوضع اللبناني، أرادوا أن يخلخلوا بنية الدولة. لذلك سلّحوا فئات ضد فئات أخرى تحت عنوان "destabilisation pour stabiliser" أي خلق اللااستقرار كي تخلق مسوّغاً للاستقرار، هذا جوهر اللعبة السورية. كل طائفة أو كل قوة في المجتمع تعتقد أنها في مرحلة من المراحل تستطيع إلغاء الآخر، وهذا حلم راود الكل، والآن يراود "حزب الله". هناك تيارات في الطائفة الشيعية ضد هذا الخيار. وفي السابق كانت هناك تيارات مسيحية ضد المشروع المسيحي وواجهته فكرياً، لكن الخطير هو الى أي حدّ يمكن أن يصل أي مشروع. معروف أن لدى برنارد لويس مشروعاً تفكيكياً للمنطقة عبّر عنه في إحدى مقالاته في 1994 متحدثاً عمّا يجري في المنطقة منذ فترة، من طوروس الى المحيط الهندي، وهو يُعتبر أهم عقل يهودي وأهم عالم يهودي، تقاطع في ذلك مع ما قاله آرييل شارون العام 1983، ما يؤكد وجود مخطط إسرائيلي لتفكيك المنطقة. ما يجري الآن هو مشروع تفكيك للمنطقة وإعادة تشكيلها.

هذا العنف الدائر مستخدماً الدين الإسلامي من جهة، وعنف الأقليات من جهة ثانية، يمثلان برأيي مقبرة جماعية. العنف والتطرّف هما مقبرة جماعية للسنّة والشيعة والدروز والمسيحيين، والحل هو عودة العقل والإخاء وإعلاء الوطنية، وعدم استخدام كل هذه الشعارات. عندما يعلن وزير خارجية بريطانيا أن الحرب في سوريا سوف تستمر لعقود ونتائجها حتمية على الجوار، ومن ثم يقول إن سوريا سوف تتفكّك

ونتائجها لن تقتصر على الجوار إنما على العالم، باعتبار أننا قريبون من أوروبا، ماذا يعني ذلك؟ الآن في السياسة الدولية، الروس يلعبون لعبة الأقليات. في أوائل القرن تبنّت فرنسا قضية الأقليات أو استراتيجية الأقليات ثم الإنكليز ثبّتوا المشروع العربي بعد أن لعب الفرنسيون هذه الورقة في أوائل القرن الماضي. الآن عدنا الى تشكيلة ما بعد السلطنة العثمانية، حالياً يتمّ تشريح المنطقة على الطاولة ولبنان معني بهذا الحدث، من هنا خطورة ما يجري في لبنان. فإذا كنا لاعبين على الطاولة يبقى لدينا كيان ودولة، وإذا كنا مجرّد ملعب، نكون خسرنا. دخول "حزب الله" الى سوريا كان خطأ. وسبق وقلت ذلك لأحد قياداته مذكّراً بموقف مهمّ للإمام موسى الصدر قال فيه إن "قدر الشيعة أن يكونوا السوار النحاسي الذي يحمي حدود لبنان". هذا كلام جميل، لماذا نخرق هذا السوار النحاسي وندخل في متاهات داخل سوريا؟ وإلى أين سنصل وما الذي سنجنيه سوى القتلى؟ "حزب الله" يخرق مسلّمات أساسية في البلد. طبعاً هو يخرق مسلّمات شيعية أيضاً، إذ إنه يخرق السوار النحاسي ويعبر الى خارج الحدود.

في المقابل، لا بد من التنبّه إزاء بعض التيارات السلفية، الفعل وردّ الفعل، علينا تحييد لبنان عن التجاذب الإقليمي".

وما إذا كان لهذا التطرّف جذور أو أب في لبنان، يقول خليفة: "هذا النوع من التطرّف السنّي والشيعي ليس له جذور في لبنان. هذا التطرّف غريب عن تقاليدنا. في تاريخ الشيعة لم ألحظ هذا العنف والتطرّف وفي تاريخ السنّة كذلك، لكن التمويل الخارجي يفعل فعله شرقاً وغرباً على طريقة "qui donne ordonne" الذي يموّل يأمر. لذلك يجب إقفال حنفيات التمويل الخارجية. التطرّف له جذور لها علاقة بالفقر والعاطلين عن العمل، يجب معالجة الوضع الاقتصادي الاجتماعي. 50 في المئة تحت خط الفقر في طرابلس وفي باب التبانة. الفقر مستشرٍ في جبل محسن أيضاً. فلسفة لبنان تقوم على الاعتدال وعلى اللاعنف. الدولة بمعناها السياسي الاقتصادي الاجتماعي الأمني هي التي تحفظ حقوق الجميع وما من طرف يمكنه لوحده أن يحفظ حقوقه لأن ذلك خارج القانون والدولة ويوصل البلد الى الانهيار. العبرة الأساسية أن

نبني الدولة من كل مكوّنات المجتمع اللبناني، وهي تحتكر السلطة، وتعيد التجنيد الإجباري، بدل أن يصبح الجيش 150 ألفاً، خفّضنا عدد عناصره من 80 ألفاً الى 50 ألفاً.

الآن ندمّر أنفسنا ونتقاتل مع بعضنا البعض. عرسال جزء من شعبنا الذي يحافظ على الحدود الشرقية، لماذا أعتبره إرهابياً؟ والشيعي في الجنوب قاتل إسرائيل، هذا جزء من بطولات شعبنا، لكن علينا أن نضع هذه البطولات في "قجّة" الوطن، كما أن الماروني لديه بطولات والدروز قاتلوا العثمانيين. كل طائفة قدّمت للوطن ما يكفي".

(٤) أنطوان مسرّة

سياسيون مسيحيون يستغلّون "عقدة الذمّية" للتعبئة الشعبية

يناقش عضو المجلس الدستوري الباحث الجامعي الدكتور أنطوان مسرّة تجربة الاعتدال في لبنان وخصوصاً دور المسيحيين في هذه التجربة. ويستنتج أنّ المسيحيين يشهدون في هذه المرحلة "ظاهرة انحطاط لا مثيل لها في تاريخ المسيحيين العرب عنوانها استغلال الخوف لديهم وسعيهم إلى الحماية من أنظمة توليتارية"، مع العلم أنّ هذا "الاستغلال" يتنافى مع التراث المسيحي المدافع عن الاعتدال. ويعتبر أنّ بعض السياسيين المسيحيين يلعبون على وتر الغرائز المكبوتة "ويوهمون المسيحيين بأنّهم يدافعون عنهم كأقليات لتبرير تحالفات مشبوهة وخارجة عن الطبيعة".

هنا نص الحوار:

❋ بداية كيف تُعرّف مصطلح "الاعتدال"؟

ـــ "كل العبارات والمصطلحات في لبنان تعرّضت للتلوث: الميثاق، الدستور، الطائف، الحكومة، التوافق، كلها من دون استثناء. حتى بعض القضايا المتعلقة بالله تعرّضت للتلوث. هذه ظاهرة تشبه الحالة التي عرفتها ألمانيا خلال النازية لأنّ الأنظمة الديكتاتورية التي تسعى إلى السيطرة، تبدأ بتخريب النفوس والعقول. يقول كونفوشيوس: "عندما تفقد الكلمات معانيها يفقد الناس حرياتهم"، يعني أن المعاني إذا لم تعد واضحة يمكن التلاعب بعقول الناس وجرّها واستغلالها. أكثر العبارات التي

تعرضت للتلوث عبارة "الاعتدال"، وذلك لسببين؛ الأول أنّ لدى اللبناني تقاليد عريقة جداً في التسوية، وهذه ظاهرة إيجابية جداً. يقول الفيلسوف الالماني جورج سيميل: "التسوية هي أهم اختراع للفكر البشري"، لأنّ الحيوان غير قادر على التسوية وكلما كان الإنسان ذكياً كلما توجّب عليه مواجهة عدة احتمالات لقضية متشابكة، لكن بين التسوية والمساومة فرق شاسع والبعض عندنا يميل غالباً إلى المساومة وليس إلى التسوية. التسوية قائمة على حقوق وتنازلات متبادلة.

أما المساومات التي فيها قهر واستسلام فتنجح لفترة وجيزة وسرعان ما تنفجر فجأة كما حصل مراراً في لبنان، فيبدو ذلك مفاجئاً للوهلة الأولى. المثال الأبرز هو اتفاق القاهرة سنة 1969. لم نكن مخيّرين بين الجيّد والسيئ بل بين السيئ والأسوأ. خلال السنوات العشرين الأخيرة على الأقل ومع تراجع رجال الدولة في لبنان انتشرت الانتهازية لدرجة لا مثيل لها في كل تاريخ لبنان، وطالت جماعات من الناس من قضاة ومن أساتذة جامعات ورجال دين ولا أقول جميع الناس، طبعاً هناك أشخاص محصّنون وليسوا في حالة استسلام كامل وتموضع وانتظار مَن سيربح للاصطفاف. هذه الانتهازية انتشرت كثيراً حول أمور جوهرية تتعلق بالسيادة والاستقلال بالرغم من بطولات عديدة في الدفاع عن الحرية وشهداء الحرية وما إلى ذلك.

لكن عندما تطال "الانتهازية" و"التموضع" و"التكتيك" و"المساومة" أموراً جوهرية وفي ظلّ هذا النوع من القيادات تكون البلاد في عصر من الانحطاط. الاعتدال هو في جوهر التكوين اللبناني وفي صلب الثقافة الميثاقية في لبنان. وهنا لا أعني الاعتدال ضدّ كل التطرّف، لأني في بعض الأحيان أحب التطرّف في الأمور الجوهرية، التطرّف مطلوب في الأمور الجوهرية وهي قليلة ونادرة. أعني بالقضايا الجوهرية: الميثاق والدستور واحترام التقيّد بمسار المؤسسات، الاستقلال والعلاقات في ما بيننا".

مفهوم العدل والاعتدال

* **يعني العيش المشترك؟**

ــ "طبعاً، طبعاً، الرئيس حسين الحسيني يقول إنّ لبنان ليس مجرد أرض بل علاقات في ما بيننا وهذه صارت أموراً اختبارية، يعني في السابق كان فيها نوع من الأدلجة مثل "لبنان ذو وجه عربي" ولبنان "موحّد" أو "فدرالي" وما إلى ذلك، كل هذا تجرّب عملياً ولم يعد هناك تنظير حول هذه المسائل. هنا نعود إلى عبارة الاعتدال في اللغة العربية. يجب أن نعيد الاعتدال إلى أصالته، كلمة اعتدال بحسب "لسان العرب" مشتقة من "عدل" و"العدل" يتطلب موقفاً حقوقياً ويتطلب مجموعة مبادئ وهو خارج أي مساومة. الاعتدال هو الذي يؤثر على العدالة بين الناس والتقيّد بحقوق الجميع وفي العلاقات البشرية بين الناس.

ما يعني عدْل وعَدَلَ واعتدال، كم هذه العبارة غنية خصوصاً في الفقه الإسلامي، نعم يجب أن نعود إلى مفهوم العدل والاعتدال، وأن نشجّع على المواقف المبدئية في الشؤون اللبنانية الأساسية. إذا كنت تريد نموذجاً عن هذا الموضوع يوجد لديك نموذجان، نموذج الرئيس فؤاد شهاب صاحب شعار "ماذا يقول الكتاب" وهذا ذروة الاعتدال، وكتاب وزير الخارجية السابق فؤاد بطرس (مذكراتي) الذي يجسّد أيضاً ذروة الاعتدال.

أين نجد اليوم هذا النوع من الاعتدال؟ هو غير موجود لدى بعض العاملين في الحقل العام وهذا يعني ان المعتدل يجب أن يكون قاضياً معنوياً ويجب أن يكون عادلاً بروحيته ولديه احترام لقواعد اللعبة في لبنان. درجت في الفترة الأخيرة عبارة كان يردّدها كثيرون "على مسافة واحدة من الجميع". لا يوجد عبارة أكثر انتهازية وانحطاطاً من هذه العبارة. ماذا تعني انني "على مسافة واحدة من الجميع؟".

وهذه العبارة كانت تُستخدم بشيء من التفاخر، وهي تعني في علم النفس أنّ مَن يكون على مسافة واحدة من الجميع هو أساساً لا يعطي رأيه. يتجنّب إبداء رأي تجاه الآخرين ما يعني باللغة الفرنسية "equidistant" التي لا تُستعمل إلاّ في علم

الهندسة. لأنّها تتطلب الكثير من الحسابات ولا تُستعمل إلا في علم الهندسة. هؤلاء الذين يكونون على مسافة واحدة من الجميع ليس لديهم موقف ويتموضعون ولا يقولون ماذا يريدون وفي غالب الأحيان يسعون إلى التموضع وهذه تتطلب منهم الكثير من الحسابات ولا شيء إلا الحسابات لمصلحتهم وليس لمصلحة المبدأ والحقيقة والموقف. أقول ذلك مع شيء من الابتسامة لأنني أنا أيضاً ظُلمت في هذا الموضوع".

* **كيف؟**

— أنا لست منتمياً إلى حزب. أنا من حزب الدولة ولكن ككل كائن بشري عندي أفضليات عند هذا الحزب وأفضليات عند ذاك الحزب. وهذا يعبّر عن التزام بالشأن العام ولكن عندما تتخذ في لبنان موقفاً مبدئياً في بعض الشؤون يصنّفونك مع انك لم تتبنَّ لا حزباً ولا فئة ولا أي جهة معينة".

* **يصنّفونك منحازاً؟**

— "نعم، يصنّفونك منحازاً لأن معايير الجمهورية تلوّثت ورجال الدولة موجودون اليوم في الحكم وترى كيف يصنّفون البعض في هذه الجهة أو تلك، لأنّهم يتبنّون: ماذا يقول الكتاب".

* **يُفهم من كلامك أنك تنعى تجربة الاعتدال في لبنان؟**

— "أريد تصويب الاعتدال، نحن نمر في مرحلة بالغة الخطورة في قضايا العلاقات الإسلامية - المسيحية. العلاقات بين الأديان استقطبت العديد من الحوارات، وكانت مجدية ومفيدة ولكنها تجنّبت الأمور الصعبة، ليس في سبيل العداء بل في سبيل معالجة بنّاءة. نحن في لبنان نحتاج إلى مواقف واضحة لتجنّب الفراغ، ونحتاج إلى مزيد من التصويب للعودة إلى مفهوم الاعتدال أي طرح المواضيع بروحية غير عدائية بهدف المعالجة وثانياً في القضايا الوطنية السياسية نحن بحاجة إلى التصويب أيضاً والأصالة هي بالعودة إلى قواعد اللعبة في ما يتعلق بالدستور وما اتفق عليه في الميثاق الوطني، لأنّ الميثاق في اللغة العربية هو ما يربط ويوثّق، والمواثيق لا يعاد النظر فيها كل فترة كأننا شعوب متخلّفة.

أنا معتدل بمعنى العدل وبمعنى الحقوق، بهذا المعنى أنا معتدل وأسعى إلى الاعتدال".

جذور الاعتدال عند المسيحيين

* بناء على تجربتك وخبرتك في الميثاق والدستور، في التجربة اللبنانية إذا رجعنا إلى مرحلة الاستقلال أو ما قبله أو ما بعده عرف لبنان باعتداله ربما بسبب تعددية الطوائف، ولعب المسيحيون دوراً في هذا الخصوص، وقد استشهدت بالرئيس الراحل فؤاد شهاب كنموذج لهذا الاعتدال، ماذا عن جذور هذا الاعتدال عند المسيحيين في لبنان؟

— "كل عصر النهضة في المنطقة العربية والفكر اللبناني الميثاقي ووثيقة الوفاق الوطني (الطائف) تمثّل فلسفة الاعتدال. تقاليدنا في التسوية بالمعنى الراقي تؤسس لثقافة الاعتدال، لكن برزت عدوى صهيونية. في علم النفس يقال: "غالباً إنّ الضحية تسعى إلى التمثّل بالجلاد"، وكل تطرّف ديني بمعنى التعصّب هو صهينة إن كان عند المسيحيين أو عند غير المسيحيين، ما يجري بالنسبة إلى بعض المسيحيين خلال السنوات الأخيرة انه تم استغلال عقد نفسية لديهم موروثة من التاريخ حول "عقدة الذمّية" واستغلها بعض السياسيين المسيحيين لتعبئة النفوس والانخراط في توجّهات محددة مناهضة للاعتدال وتتنافى مع كل التراث المسيحي في الدفاع عن الحريات والاعتدال. في علم النفس العيادي لدى بعض المسيحيين عقدة الذمّية بمعنى نحن أقلية مضطهدة، نحن نتكلم في علم النفس وليس في الواقع وهذه العقدة لم تتم معالجتها من خلال تنقية الذاكرة التاريخية. والخطورة أن يستغل بعض السياسيين "imposteurs" هذه الغرائز المكبوتة لدى بعض المسيحيين في سبيل تعبئتهم وإيهامهم بأنّهم يدافعون عنهم كأقلّيات ويدافعون عنهم ضمن تحالف أقلّيات ليبرّروا تحالفات مشبوهة وخارجة عن الطبيعة تتنافى مع مصلحة المسيحيين. أما لدى المسلمين فأوهمت أنظمة استبدادية الديبلوماسية العالمية بأنّها أقل سوءاً من البديل عنها، وانها رمز الاعتدال وانها حامية لما يسمّى الأقلّيات في

المنطقة. وظهرت تيّارات "إسلام سياسي"، "إسلام متطرّف"، "إرهاب إسلامي"، كل هذه العبارات أنا لا استخدمها لأنها تعني بالفعل انهم مسلمون متصهينون، لأنّ المسلمين الذين يحرقون الكنائس ويضطهدون مسيحيين هؤلاء خارج كل التراث العربي والإسلامي وهم يريدون بالفعل العيش لوحدهم، أي كما فعل اليهود الصهاينة في إسرائيل. كل تطرّف بمعنى التعصّب هو صهينة ونحن اليوم بحاجة للعودة إلى الاعتدال الإسلامي والمسيحي اللبناني بمعنى العدل والحقوق والعيش معاً بمساواة، لأنّ المنطقة مهدّدة بالصهينة، ولحماية النسيج التعدّدي العربي ضدّ تيّارات الصهينة. هذا يعني اننا أدركنا بالعمق ماذا يعني الصراع العربي - الإسرائيلي من الناحية العسكرية، لكن لم ندرك الأبعاد الثقافية للصراع العربي - الإسرائيلي. كما وُجد عند المسيحيين في أميركا مسيحية متصهينة، اليوم يوجد إسلام متصهين. يجب أن نواجه مخاطر الصهينة في المجتمعات العربية التي كانت على مدى قرون نموذجاً في إدارة التعدّد الديني والمذهبي في المنطقة".

❋ شكّل الاعتدال رصيداً لكل قوى الاعتدال في البلد مسيحيين ومسلمين وخصوصاً للمسيحيين، حيث "وفّر لهم تفاعلاً مع الآخر، وخصوصاً في عصر النهضة. هل يمكن أن تؤثّر صحوة التطرّف اليوم أو استنهاض "عقدة الذمّية" على المزاج التاريخي المرتبط بالاعتدال عند المسيحيين؟

— "نواجه خطورة اليوم في قضية الاستقواء. هناك تطرّف يرتدي لباساً دينياً وهذا صهينة، وهناك منحى في الاستقواء منذ العام 1975 حتى العام 1990. كانت هناك مساع من الطوائف الكبرى للاستقواء على بعضها البعض. هذا تطرّف لكن اسمه استقواء وعادة في لبنان هناك تجارب عديدة في الاستقواء وكان ضحيتها المستقوي بذاته لأنّ لبنان بلد الانتصارات المستحيلة والانتصارات المفخخة والمجيّرة للخارج والوهمية، والذي ينتصر بالاستقواء بالخارج يضطر الى دفع فاتورة الاستقواء.

لو كان يستقوي بالداخل بقدرته الذاتية يمكن الحديث عن لعبة ديموقراطية طبيعية، لكن يستقوي بالخارج وهذه تكلّف فواتير في ما بعد. وفي تاريخ لبنان بعض القياديين الوطنيين الذين لم يكونوا انتهازيين بشكل مشبوه مع الخارج، عندما طُلب

منهم دفع فواتير تتنافى مع الاستقلال والسيادة تعرّضوا للاغتيال. يجب أن ننمّي الذاكرة لدى اللبناني بأنّه انتهى عهد الاستقواء.

هناك الطوائف الكبرى والطوائف الصغرى. الطوائف الكبرى يعني الموارنة والسنّة والشيعة كان لديهم تجارب بالاستقواء في فترات مختلفة. ظننت بعد العام 1990 أي بعد اتفاق الطائف أنّ هؤلاء أخذوا العبرة ولن يلجأوا إلى سياسة الاستقواء، لكن تبين أن اللبناني لم يتعلّم، ويحتاج إلى عِبَر، هذا عدم اعتدال يأخذ طابع الاستقواء وهو أسوأ من التطرّف ويحوّل لبنان إلى ساحة"، الأقلّيات الصغرى ليست أقل ذكاء لكنها تعرف حجمها".

❋ يعني أنت تقول إنّ بعض المسيحيين يستقوون بالطرف الذي يستخدم الاستقواء، إلى أين يؤدي ذلك بالمسيحيين؟

— "طبعاً، هناك عند المسيحيين ظاهرة انحطاط لا مثيل لها في كل تاريخ المسيحيين العرب عنوانها استغلال الخوف لديهم وسعيهم إلى الحماية، وهذا أكبر انحطاط في كل دور المسيحيين في العالم العربي. نحن نشهد الآن أكبر مرحلة انحطاطية في تاريخ المسيحيين في المنطقة العربية بسبب استغلال خوفهم واستجدائهم الحماية من أنظمة توتاليتارية بينما كانوا دائماً روّاد الحريات وحقوق الإنسان والديموقراطية في المنطقة. وهذا لا يعني أنّ عليهم المواجهة والعدائية مع الأنظمة ولكن على الأقل الحكمة والحذر وعدم التنظير للخوف واستغلاله، حصل عندنا تنظير للخوف واستغلال للخوف وتلاعب بغرائز الناس حول قضية الخوف. لكن اليقظة قريبة ولكن بكلفة عالية ربما".

❋ كيف؟ ولماذا؟

— "لأنّه عملياً لا أحد يحمي المسيحيين والمسلمين إلاّ الدولة اللبنانية. يحمينا القانون لا نظام معيّن يحمينا، وإذا قام نظام بحمايتي فيكون ذلك بكلفة مرتفعة. الذين يقومون بتعبئة الناس بحجّة الحماية لا يقولون لهم ما هي كلفة هذه الحماية وهي عالية، والآن يعيش الكثير من المسيحيين العرب كلفة الحماية".

❋ نعود إلى تجربة الاعتدال عند المسيحيين، الرئيس فؤاد شهاب هو الرمز الأبرز لهذه التجربة. برأيك، هل هناك نماذج أخرى في التاريخ الحديث؟

ـــ "نعم، طبعاً، أنا دائماً أنتقد كل تعميم ضدّ الطبقة السياسية. هذا تعميم ظالم. الحديث عن الطبقة السياسية في ظل التعميم فيه أظلم. لبنان شهد في كل تاريخه رجال دولة ذات مستوى عالمي. فؤاد شهاب، كاظم الصلح، رياض الصلح، بشارة الخوري، كمال جنبلاط، هؤلاء لم يساوموا على قضايا الاستقلال والسيادة، الإمام موسى الصدر وجورج افرام وصولاً إلى رفيق الحريري الذي تعرّض للاغتيال عندما قال لا".

إعادة التأسيس تعني المجهول

❋ إذاً الاعتدال عند المسيحيين يشهد مرحلة انحطاط في الوقت الحاضر لكنه ليس في خطر؟

ـــ "مرحلة انحطاط نعم، لكنْ هناك خوف كبير الآن من إعادة لبنان إلى مرحلة تأسيسية استنفدت. لبنان أنجز مرحلته التأسيسية دستورياً، لا يمكن إعادة تأسيسه من جديد. يُراد عودتنا إلى مرحلة تأسيسية كباقي الأنظمة العربية ونحن تخطينا هذه المرحلة. عقدنا مؤتمراً منذ أيام في فندق "مونرو" كرّرنا فيه قول الرئيس رشيد كرامي كنموذج في الاعتدال. ففي سنة 1976 طرحت مقولات من مثقفين ورجال سياسة مثل "مات الميثاق وقبرناه" و"الآن بدأت معركة الجبل" و"لينتصر مَن ينتصر". هذه عبارات استُعملت لكن الرئيس كرامي قال عن ميثاق 43 "لنعمل لما يغنيه ولا يلغيه". إذا أعادونا اليوم إلى مرحلة تأسيسية نكون قد دخلنا في المجهول. إعادة التأسيس تشبه زوجين يعيدان النظر يومياً في عقد الزواج. يمكن إعادة النظر في تربية الأولاد أو في أثاث البيت أو إدارة أموال العائلة، لكن لا يمكن إعادة النظر في عقد الزواج كل يوم".

❋ ما هي الغاية من هذا الطرح برأيك؟

ـــ "ثمّة غاية اقليمية لا علاقة لها بلبنان القصد منها ربط لبنان بالصراعات في

المنطقة وتغيير هويته السياسية، وهذه المرّة هناك خطورة كبرى تحدث عنها عباس الحلبي في المؤتمر بقوله: هناك خطر جدّي على وحدة لبنان هذه المرة، هناك خطر من فدرلته وهي فدرلة مستحيلة بالفعل.

منذ حوالى 5 سنوات كان الوضع صعباً في البلد، الصحافية جيزيل خوري سألت الرئيس فؤاد السنيورة في مقابلة تلفزيونية "هل نحن ذاهبون إلى المجهول؟"، فأجابها: "كلا نحن ذاهبون إلى المعلوم، لأن الكلفة باهظة ولكن عبثية". كل الأفكار الأساسية جرّبت في لبنان من ناحية التنظيم الدستوري. الفدرالية الجغرافية جربناها سنة 1860 وجرّبناها في الحرب، والاستقواء جربناه في الحرب، لأنّ النظام اللبناني في مرتكزاته الأساسية ليس قضية لبنانية وحسب، إذ إننا إذا أقمنا نظاماً فيدرالياً في لبنان فسيكون هناك موقف للمنطقة. وإذا قسّم لبنان يقود ذلك إلى تداعيات في المنطقة، وإذا صار لبنان ذات أرجحية إسلامية أيضاً يكون لذلك تداعيات في المنطقة، أو أرجحية مسيحية أيضاً. لبنان في مرتكزاته الأساسية ليس قضية لبنانية، لدينا مجال واسع جداً ولم نعمل عليه في تنظيم البيت اللبناني، فكرة يستعملها ميشال أسمر. لكن الامور الجوهرية كلها قمنا بتجربتها وسنعود إلى المعلوم في النهاية ولكن بكلفة عالية".

الاعتدال والتعددية

❋ استنتاجاً، يمكن القول إنّ المطلوب اعتدال داخل الطوائف مثلما هو مطلوب بين الطوائف؟

ـــ "طبعاً، المطلوب اعتدال داخل الطوائف والتعددية داخل الطوائف هي التي تصنع الاعتدال. للأسف حصل إلغاء للتعددية داخل بعض الطوائف وهذه تشجّع التطرّف والتعصّب، وكل تعصّب هو صهينة. وأحلى عبارة تتردّد حول ذلك أرددها دائماً عن لسان الإمام موسى الصدر وهي ان "السلام في لبنان هو أفضل وجوه الحرب تجاه إسرائيل".

*** التطرّف له جذور عند المسيحيين في لبنان؟**

— "التطرّف الذي يتعلق بسيادة لبنان واستقلال لبنان ليس تطرّفاً، هو تطرّف على طريقة "ماذا يقول الكتاب"، أمّا التطرّف بمعنى التعصّب له جذور طبعاً منذ العام 1943 ولم نعالجه، وأبرز تجلياته عقدة الذمّية وعقدة الأقلية وعقدة "لبنان الصغير". عندما نشأ لبنان الكبير تغيّرت الذهنية. قبل ذلك عاش الدروز وبعض الموارنة في لبنان الصغير. ذُكر في كتاب التاريخ المدرسي "هنيئاً لمَن له مرقد عنزة في جبل لبنان"، فليجدوا الآن مرقد عنزة في جبل لبنان. لبنان الكبير كان يتطلب تغيير الذهنية وتفسيراً لجوهر لبنان الكبير، حيث أصبحنا كلنا متساوين، لا يوجد هيمنة لأي طائفة. كان يتطلب معالجة في الذاكرة التاريخية. كل بلدان العالم عرفت هذا النوع من المعضلات لكنها خضعت لمعالجة من خلال كتابة واقعية للتاريخ، وليس توجيه التاريخ. نحن في لبنان الكبير لم نعد "هنيئاً لمَن له مرقد عنزة في جبل لبنان"، ولم يعد هناك تحالف ماروني - درزي، هناك ذاكرة تاريخية لجميع الطوائف، لكل طائفة ذاكرة تاريخية، ليست في حالة تناقض مع الذاكرات الأخرى، مثلاً الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس عاشوا في المدن وفي تفاعل يومي مع السنّة. موارنة جبل لبنان عاشوا بأقل تفاعل ولكن بانفتاح ثقافي طبعاً. السنّة كان لهم دور خلال العهد العثماني في إدارة الشأن العام. بعض الطوائف الأخرى لديها ذاكرة أخرى وبعض الجهات أتت إلى السلطة كأنّها في حالة غزو، ليس لأنّها سيئة أو فاسدة، لكن لذلك علاقة بالذاكرة التاريخية. أهم نموذج للذاكرة التاريخية في ما يتعلق بالاعتدال هي الطائفة الأرمنية لأنّها تعلّمت من ذاكرتها وأصبحت داعمة للدولة ومدركة ان مصدر حمايتها هي الدولة اللبنانية. أذكر سنة 1975 عندما وجّهت انتقادات عديدة للأرمن بسبب عدم انخراطهم في الميليشيات ولماذا وقفوا على الحياد، أذكر ما قاله لي النائب الراحل خاتشيك بابكيان عندما قال: "لا نريد أن نتهجّر مرّة ثانية". هذه الذاكرة التاريخية تربّى عليها أهل سويسرا، لأنّ تاريخ سويسرا شبيه بتاريخ لبنان، فيه مقاطعات وصراعات وتدخّلات أجنبية، وتعلّم السويسريون من تاريخهم أن لا يفتحوا نوافذهم وابوابهم إلى الخارج. أخبرني سفير سويسرا السابق في لبنان فرنسوا

باراس انه إذا ذهب نائب سويسري إلى بروكسل، أي إلى الاتحاد الأوروبي يعزله ناخبوه ويمتنعون عن انتخابه، لأنّ التفاوض مع الاتحاد من اختصاص الدولة وليس النواب. يمكن أن تقابل صديقاً لك في الاتحاد الأوروبي ليست مشكلة، أكثر من ذلك لا يجوز، هذه ثقافة الحياد.

يجب أن نحيّد اللبناني، لأنّه بحاجة إلى حياد ديبلوماسي لأنه أيضاً في علم النفس العيادي السياسي لدى اللبناني عقدة "الباب العالي"، هو بحاجة غرائزياً لباب عالٍ، تعوّد على الباب العالي في تاريخه لحل مشاكله. واللبنانيون الآن ينتظرون الباب العالي.

في أي حال، الباب العالي في الماضي لم يكن يعالج قضيتنا اللبنانية عملياً، كان يجري مساومات يستفيد منها هو وليس اللبنانيين".

*** في الخلاصة، هذا الاعتدال بما يعنيه من أهمية في وجه ما يسمّى الإرهاب والتطرّف وقد أصبحا آفة عالمية، ما هي الخلاصة التي يمكن الوصول إليها لإعادة تظهير هذا الاعتدال وتمتينه؟**

— "للبنان تراث ضخم جداً على مستوى عالمي في فكر العيش المشترك والميثاقية، ومساهمة في النهضة العربية والديموقراطية والاعتدال بالمعنى الراقي. الجيل الجديد يفتقده. نحن بحاجة لإحياء هذا التراث، وهو موجود لدى "الندوة اللبنانية" (ميشال أسمر)، ولدى القياديين الكبار وفي تراثنا العميق. الجيل الجديد لم يعشه والخطورة لدى الجيل الجديد. قال لي النائب السابق ادمون رزق في إحدى المرات طالما أن البذور موجودة يعني هناك أمل. الفلاحون كانوا يقولون في أيام المجاعة طالما لدينا بذور ليس هناك خطر ولكن إذا فُقدت البذور فماذا نزرع؟".

*** يعني رصيد الاعتدال أكبر من رصيد التطرّف؟**

— "نعم رصيد متراكم جداً. التجارب التاريخية أثبتت أنك لا تستطيع ضرب تراث بلد، تستطيع ضربه 10 - 20 - 30 - 50 - 70 سنة ولكن لا تستطيع تدميره.

الاتحاد السوفياتي مثلاً شهد على مدى 70 سنة تدميراً منظماً ممنهجاً ضدّ الأديان وانهارت العقيدة الشيوعية بعد 70 سنة. لم تستطع تغيير التراث شرط أن يبقى حياً. غورباتشوف قال في مقابلة مع "لوموند" منذ سنوات إنّ أفكاره الإصلاحية استمدها من جدّه وجدّته اللذين كانا يخبرانه عن روسيا القديمة والأديان وعظمة روسيا. في النهاية تبين أنّ جدّة غورباتشوف كانت أهم من لينين وستالين و70 سنة من الأدلجة المنظّمة في المدارس والجامعات والإلحاد والفكر السوفياتي. لا بد من إعداد برامج مع الجيل الجديد، هناك برنامج مباراة مع ألف تلميذ في كل لبنان حول وجوه ميثاقية والميثاق اللبناني. ميثاقنا بخطر والمطلوب يقظة وطنية عارمة تعيد يقظة انتفاضة الاستقلال و"ثورة الأرز". المطلوب من المواطن أن يقول كفى. أكثر الأشياء تعبيراً لفتت انتباهي في ثورة الأرز وانتفاضة الاستقلال لافتة رُسم عليها خمسة خراف وكتب عليها: إلى متى؟ إلى أين؟".

(٥) رضوان السيّد

الاعتدال السنّي من لبنان الكبير إلى رفيق وسعد الحريري

يستعرض الباحث في الشؤون الاسلامية الدكتور رضوان السيد أهم محطّات الاعتدال السنّي في لبنان منذ إعلان دولة لبنان الكبير الذي كان مناسبة لـ"اول اعتراف إسلامي بلبنان"، مذكراً بدور الرئيس الشهيد رفيق الحريري الذي "أعاد فئات السنّة الوسطى الى الدولة وأدخل الريفيين الى الوطن"، ليؤكد أن الحريري "رائد الاعتدال السياسي وقد دخل على خط الاعتدال الديني أيضاً... وأنه كان على رفيق وسعد الحريري مواجهة مشروعين: تصفية العروبة وشرذمة الإسلام". ويقول السيد إن البعض يتحدّث عن تحول السنّة إلى طائفة "وما كنا كذلك ولن نكون"، مشيراً إلى أن "لدينا شجاعة وسلمية ووعي سعد الحريري وشعاره لبنان أولاً والصمود الهائل من دون سلاح ولا ميليشيا". ويؤكد أن الاعتدال "شرط وجود لأن التطرف يظل انشقاقاً"، ليشدّد على "أننا خرجنا في مطلع القرن من نير الترك ولن ندخل تحت نير الإيرانيين".

وهنا نص الحوار:

*** هناك اختلافٌ بالفعل بالمقصود من الاعتدال، هو ديني أو سياسي، أو أنّ أحدهما مدخلٌ للآخر؟ ويتعرّض المسلمون السنّة في لبنان منذ مدة للاتهام بالتطرّف الديني، وكانوا يتعرّضون من قبل للاتهام بالتطرّف العروبي والفلسطيني وبقلّة الولاء للبنان: فما هي قصة المسلمين السنّة في لبنان مع هذين "الاتهامين"؟**

– "لا أرى أنّه من المفيد الدخول في جدال بشأن مَن كان الأكثر ولاءً للبنان. بل يكون مفيداً بالفعل تتبّع المسار التاريخي لأهل السنّة ضمن "الجماعة الوطنية"، وضمن المحيط العربي. وسأعمد لذلك في الإجابة عن سؤالك. أمّا الاعتدال فقد تعدّدت واختلفت معانيه في السياق اللبناني في المراحل المختلفة. ففي فترة كان الاعتدال عند النخبة المسيحية الحاكمة يُطلق على مَن يقرّ بأولويتهم ثم باعتبارهم أصحاب المشروع الأصلي. ثم صار يعني عدم الإسراف في تأكيد الحقوق الطائفية سواء أكان الطالب سنّياً أم شيعياً. ثم صار يعني: عدم الإسراف في تأكيد عروبة لبنان أو عدم الإسراف في الدخول على خط ياسر عرفات أو عدم الإسراف في الولاء لحافظ الأسد والنظام السوري. إنّما في التسعينات وما بعد فقد صار يعني عدم الدخول في التطرّف الديني السنّي. وفي هذه الحالات والمراحل كلها، كان "الإسراف" الذي أشرت إليه إخلالاً في نظر بعض المسيحيين بالولاء للوطن وفي الحدّ الأدنى للنظام أو الصيغة!

أمّا أوّل مشاهد الاعتدال أو الولاء الوطني أو للدقة الاعتراف الإسلامي بلبنان، فقد حدث عام 1920، عند إعلان دولة لبنان الكبير، إذ يبدو في الصورة التاريخية الشهيرة الجنرال هنري غورو والى يمينه البطريرك الماروني الياس الحويّك، والى يساره مفتي بيروت وقتها الشيخ عبدالباسط الفاخوري. وأود منذ البداية التمييز بين العيش الإسلامي/ المسيحي من جهة، والعيش بين الطرفين في الكيان السياسي. فقد كان العيش كاملاً ومزدهراً في بيروت وطرابلس وصيدا، وهي المدن الكبرى على الساحل ذات الأكثرية الإسلامية السنّية. وقد حدثت مشكلات أو بدأت بعد قيام الكيان، ليس بسبب هضم الحقوق السياسية فقط، بل بالدرجة الأولى لأنّ صيدا والجنوب كانا مرتبطين في حياتهما الخاصة والعامة بفلسطين، بينما كانت طرابلس وما وراءها مرتبطةً في كل شيء بحمص والداخل السوري. ولذلك فقد كان اندماج بيروت في الكيان أسهل لأنها صارت عاصمته، ولأنّ المسيحيين كانوا قد تدفقوا إليها من شتّى الطوائف طوال القرن التاسع عشر، وكانت لهم أدوارٌ سياسية وليست معيشيةً فقط قبل عهد المتصرفية وخلاله. ومع ذلك فإنّه يمكن الحديث عن اتجاهٍ سريعٍ نسبياً

للاندماج في الكيان رغم استمرار التظلم من التمييز وهضم الحقوق، وليس في بيروت فقط، بل وفي صيدا. فآلُ الصلح ليسوا في أصولهم السكنية من بيروت، لكنهم (وهم العروبيون المعروفون وبخاصةٍ رياض الصلح) أسهموا إسهاماً كبيراً في دفع صيدا والجنوب (إلى جانب أُسَر شيعية بارزة) باتجاه بيروت، والحياة السياسية اللبنانية.

عروبة لبنان

كاظم الصلح هو صاحب مقولة ورسالة "الاتصال والانفصال" وقد عنت وقتها إمكان قيام عروبة لبنانية، ما لبث رياض الصلح أن أنجزها في "الميثاق الوطني" بالاتفاق مع الحركة الوطنية السورية. وقد حدث هذا التوحُّد – كما هو معروف – على خلفية التعامل المسيحي – الإسلامي في مصارعة الانتداب الفرنسي، وانتزاع استقلال لبنان. وقد كانت تلك السنوات العشر (1935 – 1945) صعبةً وخطيرةً في معناها وشجاعتها بالنسبة للوطنيين اللبنانيين والسوريين. لأنّ الطرفين قالا ببلدين عربيين مستقلّين، أحدهما مُشرقٌ في عروبته، والآخر "عربيُّ الوجه". وقد أخبرني الرئيس تقي الدين الصلح رحمه الله أنهم عندما مضوا عام 1987 إلى دمشق مستغيثين بالرئيس حافظ الأسد لإعادة القوات السورية إلى بيروت إنقاذاً لها من ميليشيات "أمل" و"الاشتراكي"، فإنّ الرئيس الأسد عيَّره بلبنانية أُسرته وخيانتها لسوريا العروبة منذ الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين! وقال الرئيس تقي الدين: ما كنا في زمن من الأزمنة أكثر عروبةً منّا ذلك الوقت، ولولا أنّ العين لا تقاومُ المخرز لذكّرته بموقف والده المؤيّد للدولة العلوية في سوريا! ولا يزال اللغز قائماً وحاضراً في أسرار اغتيال الرئيس رياض الصلح، وهل قتله أصدقاء الكيان اللبناني أو أعداؤه؟ وهل قتلوه من أجل عروبته أو لبنانيته؟ وعلى أي حال لا ينبغي استباق الأمور بشأن تقلبات أو تطوّرات المفردات والمفاهيم مثل اللبنانية والعروبة والاعتدال. فقبل الظهور الناصري الكبير، ما كان هناك مشروعٌ وحدوي عربي واقعي منطلق من سوريا باتجاه لبنان. بل إنّ الوطنيين السوريين هم الذين فصلوا البلدين بالقوّة من الناحية الاقتصادية لأسباب سخيفة

عام 1949. ومنذ مطالع الخمسينات استقرت في اخلاد السياسيين السنّة والشيعة الأطروحة القائلة: يمكن أن تكون لبنانياً وعربياً في الوقت نفسه، كما حاول الصلحيون وغيرهم قول ذلك وتثبيته في الثلاثينات والأربعينات. ولو لم يكن ذلك أمراً سهلاً لما أطلق المسلمون على الرئيس كميل شمعون في مطلع الخمسينات لقب "فتى العروبة الأغرّ"! وما تزعزع هذا الاعتقاد حتى عندما قامت الوحدة السورية – المصرية عام 1958 إلاّ لدى بعض الطرابلسيين والريفيين المسلمين في عكار والبقاع. ورغم أنّ الرئيس صائب سلام تزعّم بيروت التمرّد على الرئيس شمعون وسياساته المعادية لعروبة عبدالناصر، فإنّ غُلاة الناصريين ببيروت ما غفروا له خلافه مع الرئيس فؤاد شهاب، واعتبروا شهاب المتوافق مع عبدالناصر أكثر عروبةً منه! وهكذا فحتى عندما كان هناك مشروع وحدوي عربي يبدو ناجحاً، لا اعتبر أهل السنّة العروبة مسألة طائفيةً خاصةً بهم، ولا اعتبروا الكيان اللبناني (الذي أقرّه بطلهم جمال عبدالناصر) خارجاً على العروبة ولا بد من مكافحته. وما تغيّر الرئيس صائب سلام لا في حياة جمال ولا بعد وفاته، وظلّ على أطروحتيه: "التفهّم والتفاهم" (بين المسلمين والمسيحيين)، و"لبنان واحد لا لبنانان".

*** هذا الفهم لموقف المسلمين السنّة من الكيان، وموقف الرئيس صائب سلام، يبدو خاصاً بك، أو أنّه تفسيرٌ جديدٌ إذا صحّ التعبير؟**

– "لديّ ضعفٌ خاصٌ (إذا صحّ التعبير أيضاً) تجاه الرئيس صائب سلام. فهو أوّل مَن عرفته من رؤساء الوزارة، وهو والرئيس رفيق الحريري من وجهة نظري، الأكثر تمثيلاً بين السياسيين المسلمين للتوافق التامّ في شخصهما وعملهما السياسي بين اللبنانية والعروبة. الرئيس سلام كان يرى أنّه لا مشكلة بين المسلمين والكيان اللبناني كما آل إليه لا كما ظهر. وإنّما المشكلة في اعتقاد المسلمين هي في انتقاص المساواة في الحقوق والواجبات. وهذه مشكلةٌ تحلّ بالتفهّم والتفاهم بحسب تعبيره. وما أزال أرى أنّ شعارَي الرئيس صائب سلام السالفَي الذكر هما الأفضل تعبيراً عن مفهوم "الاعتدال السياسي". وهناك تعابير أخرى للسياسيين السنّة تُعبّر عن الشيء نفسه وبخاصةٍ في اللغة الخاصة للرئيس تقي الدين الصلح".

*** لقد تجنّبت حتى الآن مرحلة ياسر عرفات، والتي ظهرت فيها إشكالياتٌ كبرى، وقعت في أساس النزاع الداخلي، والحرب الأهلية: أين هو الاعتدال السنّي في هذه المرحلة؟**

– "عرفات كان كبيراً وكبيراً جداً، لأربعة أسباب: انّه كان يمثّل القضية الفلسطينية، التي كانت أكبر قضايا العرب في الأزمنة المعاصرة. ولأنّه برز بعد هزيمة العام 1967 ووفاة جمال عبدالناصر. ولأنّه امتلك جاذبيةً خاصةً أو كاريزما سحرت سائر العرب ومنهم المسلمون اللبنانيون، ولأنّه صارع حافظ الأسد. قال لي المطران جورج خضر العام 1983 على أثر خطاب المفتي الشيخ حسن خالد في الملعب البلدي في ذلك العام: عند السنّة مشكلة هي خضوع السياسيين السنّة لأهواء عوامّهم، وعند الشيعة مشكلة هي خضوع العامة لزعمائهم! ولستُ أدري إذا كان هذا الاستنتاج من جانبه صحيحاً، لكن الذي أعرفُه ووعيتُه جيداً بشأن ظروف خطاب المفتي قبل العودة لياسر عرفات، أنّه بسبب تصرّفات الجيش وقتها في الضاحية، وملاحقة الأجهزة الأمنية للناس في بيروت الغربية فإنّه استقرّ في وعي المسلمين الخارجين قبل أقلّ من سنة من الاجتياح الإسرائيلي، أنّ الرئيس أمين الجميّل والجيش يعاملان المسلمين سنّةً وشيعةً باعتبارهم مهزومين. ولنعد إلى ياسر عرفات وموقف المسلمين منه. لقد رأت كثرةٌ من المسلمين أنّ المقاومة الفلسطينية (والحركة الوطنية اللبنانية) فرصة لاسترداد شرف العرب وكرامتهم. وقد غلب لديهم هذا الاعتبار على اعتباراتٍ أخرى أدركتها قياداتٌ إسلاميةٌ مثل صائب سلام وتقي الدين الصلح والمفتي حسن خالد. وقد كان هؤلاء يرون: أنّ قدرات الكيان محدودة، ولا يتحمّل مثل هذا الدور الكبير لسببين: ردّة الفعل الإسرائيلية العنيفة، وإصرار السياسيين المسيحيين وكثرة من الجمهور المسيحي على أنّ الفلسطينيين المسلحين خطرٌ على الكيان وتوازناته الداخلية، فضلاً عن عدم قدرة الكيان على الدفاع عن نفسه في مواجهة إسرائيل. وقد أزعجت فوضى الفلسطينيين المسلمين كثيراً، لكنهم مع سياسييهم سكتوا لسببين: صعود نجم حافظ الاسد وتحالفات نظامه مع فئاتٍ بالداخل اللبناني، وتأييد العرب جميعاً للمقاومة الفلسطينية. وقد

قرأتُ كتاباتٍ كثيرة لمسيحيين لبنانيين في السبعينات والثمانينات عن أنّ غرام المسلمين بياسر عرفات إنّما كان بسبب عدم ولائهم للبنان، وأنّهم يقدّمون العروبة على اللبنانية، وفي هذا خطأ كبير في الفهم، مبرّره ظروف النزاع الداخلي المحتدم، وظهور مقولة "الفلسطينيون جيشُ السنّة". فحتى في ذلك الوقت المبكّر دخل إلى وعي العامة أنّ البعثيين وحافظ الأسد هم أعداء السنّة والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية المتحالفة مع المقاومة. وهذا المنطق الذي أتحدث عنه أو هذا الفهم يدعمه أمران لهما دلالة كبيرة: خطاب المفتي في الملعب البلدي، فقد كان حديثه عن المسلمين باعتبارهم مواطنين لبنانيين يتعرّضون لظلمٍ فادحٍ من دولتهم - والأمر الآخر وثيقة الثوابت العشر في العام نفسه (1983) والتي كتب أكثرها الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وصدرت عن دار الفتوى السنّية في اجتماعٍ حاشد وهي تقول بنهائية الكيان اللبناني، وولاء المسلمين المطلق للوطن والدولة. كان المسلمون يريدون إزالة كلّ مسوّغ للانتقاص من لبنانيتهم ووطنيتهم، كما كانوا يريدون التعبير عن إدراكهم لمخاطر تحوّل لبنان إلى ساحة للصراع الاقليمي والدولي رمزاه البارزان: الاحتلال الإسرائيلي، والتدخّل العسكري السوري".

"اللقاء الإسلامي"

*** هل تعتقد أنّك أجبتَ عن مسألة الاعتدال، وأين تبدو في ظروف النزاع الداخلي والتدخّلات الخارجية؟**

- "لا مجال للحديث عن "الاعتدال" بأي معنىً في مواجهة العدوان الإسرائيلي. لكنه يبدو بوضوحٍ في خطاب المفتي، وفي بيان الثوابت العشر. كما يبدو في الثمانينات في اجتماعات "اللقاء الإسلامي" بدار الفتوى. وما كان السوريون وقتها موجودين في بيروت، ومع ذلك فقد انزعجوا انزعاجاً شديداً، ولذلك لم ينضمّ الرئيسان رشيد كرامي وسليم الحص إلى اللقاء. واغتيل بعض الأعضاء ومنهم حسن خالد وناظم القادري ومحمد شقير، كما غادر تقي الدين الصلح وصائب سلام لبنان. وعندما عاد السوريون إلى بيروت، توقفت اجتماعاتُ "اللقاء". وكان هؤلاء الوجهاء

من كبار السنّ، يذكّرون الرئيس السوري - كما قال خدّام في إحدى المرات - بالبورجوازية الدمشقية التي قامت بالانقلاب على الوحدة العام 1961! وهم كانوا يُصدرون بياناً يعلّقون فيه على الأحداث الجارية، ويطالبون بعودة حقيقية للدولة، كما يطالبون بإنهاء الفوضى في بيروت الغربية، وإزالة ميليشيات جنبلاط وبري التي دخلت إلى بيروت في 6 أيار عام 1984، وما خرجت إلاّ بعد عودة جيش الأسد الأصلي. والنكتة السوداوية في هذا المجال: انّ البورجوازيين من أهل البروستات - بحسب تعبير سوريي الأسد - هم الذين طالبوا الرئيس الأسد بإعادة جيشه إلى بيروت!".

*** ماذا حلّ بـ"الاعتدال السنّي" بعد عودة الجيش السوري إلى بيروت؟**

- "ما كانت عودة الجيش السوري إلى بيروت هي الحدّ الفاصل بين عهدين أو بين العهدين: عهد النزاع والتخاصم على كل شيء، وعهد أو اتجاه التوافق الوطني والعربي على إعادة الاعتبار إلى لبنان الدولة والوطن والاستقلال. بل الحدّ الفاصل: ظهور رفيق الحريري على الساحة اللبنانية، وتبلور شخصيته وعمله الاجتماعي والثقافي والعمراني والسياسي. بدأ رفيق الحريري عمله على الساحة اللبنانية في أواخر السبعينات من القرن الماضي. وظهر في الوقت نفسه في صيدا وبيروت. في صيدا من خلال مساعدة المؤسسات، وإقامة مشروع كفرفالوس. وفي بيروت من خلال إزالة آثار الاجتياح الإسرائيلي. وفي الوقت الذي كان يدخل إلى وعي المسلمين ثم اللبنانيين من خلال مؤسسة الحريري التربوية، دخل إلى وعي النظام السوري والسياسيين المسيحيين باعتباره وسيطاً سعودياً لإنهاء الأزمة والحرب، وإعادة الإعمار. وكان الأمر شديد الصعوبة عليه منذ البداية. فقد كان الأسد يريد إقامة لبنان على الصورة التي يرتجيها بدليل "الاتفاق الثلاثي" الذي أقرّ في دمشق بين الميليشيات الشيعية والجنبلاطية و"القوّات اللبنانية" العام 1985. وبسبب هذا الاتجاه الإقصائي القوي فشل مؤتمرا جنيف ولوزان رغم أنّ الحريري كان يريد اتفاقاً بأي شكل، لأنّه كان يريد بدايةً يمكن البناءُ عليها. وكنتُ قد رأيته مرّة أو مرّتين في منزله بدمشق، لكنني ما عرفتُه عن قُربٍ إلاّ في التسعينات. وقد قال لي مرّة في الذكرى

الخامسة لاغتيال المفتي الشيخ حسن خالد إنّ فكرة مؤتمر الطائف كانت قد نضجت في ذهنه، وبالتشاور مع الملك فهد بن عبدالعزيز والأمير سعود الفيصل وعبدالحليم خدام واللجنة العربية، عندما قُتل المفتي خالد. وتابع: لقد ظللتُ مشلولاً ويائساً لثلاثة أيام، ثم قلتُ لنفسي: إنْ لم ننجح هذه المرّة فإنّ دماءً كثيرةً أخرى تنتظر لبنان، وقد أعطتني هذه الخاطرةُ قوةً جديدة. وقلتُ له: ألمْ يخالجك الإحساس بالخيبة مرةً أخرى؟ فقال: الإحساس بالخيبة والفشل لا، لكنني انزعجت كثيراً من حروب الجنرال ميشال عون، وذُعرتُ من اغتيال الرئيس رينيه معوّض، وأدركت أنّ نصف الطائف ضاع عندما احتلّ صدّام حسين الكويت، وتكوَّن تحالفٌ ضدّه فيه الرئيس حافظ الأسد!

وما دام الحديث عن الاعتدال، فالذي أراه أنّ الرئيس رفيق الحريري أنجز في وعي المسلمين السنّة بلبنان ثلاثة أمور: أعاد فئاتهم الوسطى إلى الدولة والنظام والقرار – وأدخل كلّ المسلمين الريفيين إلى الوطن اللبناني كما لم يحدثْ من قبل – وجعلهم يشعرون بالحقّ في لبنان والالتزام به، وأنّهم يمتلكون مهمّة هي مهمةُ اللحمة الوطنية المندمجة والمتداخلة والعاملة والمبادِرة. لطالما سمعتُ الرئيس الحريري يقول لمَن يتذمّرون من الأعباء: نحن أمّ الصبي. وبقدر ما أعطاهم ذلك ثقةً بالنفس والدور جدَّد لديهم وقوّى إحساسات السلْم والأمن والانتماء إلى اللبنانية والعروبة بسلاسةٍ ما عرفوها في تاريخهم الحديث. لقد تراجعت بعضُ هذه الاعتبارات المعنوية والإنسانية خلال سنوات المحنة بعد استشهاده. لكنّ الحقائق الثلاث لا تزال هي التي تسود ضمن جمهورهم الأعظم. فهناك كثرةٌ ساحقةٌ من أهل السنّة في لبنان، وبفضل مواريثهم الحضَريَة، ورؤية الرئيس الشهيد وعمله المُلهِم والباني، لا يزالون على هذه التسوية المتميّزة بالاعتدال الديني والسياسي".

* **أين ظهر الخلل إذاً، وكيف تفهم الظواهر الحالية، وكيف تؤول الأمور من وجهة نظرك؟ هل هناك هشاشة من نوعٍ ما عادت إلى الظهور أو هي سرُّ المواري وعدم الثبات؟**

– "لا تطابُقَ بين الوعي والواقع. الوعي لدى جمهورنا أصلَب من الواقع الكثير التغيّر في العالم كلّه إلاّ في منطقة المشرق العربي منذ ذهاب عبدالناصر وياسر

عرفات... ورفيق الحريري حتى العام 2011. الواقع العربي هو المشكلة الأسدية أو الواقع الذي فرضته سوريا البعثية ثم الاسدية ثم ما لا يمكن تسميته باسمٍ ولا رسمْ، أو كما قال نيتشه: ما وراء الخير والشر! وأمام هذا التردّي الوطني والقومي وحكم الأقليات وإنهاء القضية الفلسطينية باسم المقاومة، وشرذمة العرب باسم الطليعة الثورية المتصارعة على الزعامة بين سوريا الأسد وعراق صدّام، والجمع بين الخميني والقذافي والأسد وروسيا والصين والهند وأردوغان، وكلُّ ذلك للخلاص من "الكثرة العربية" ليس في أنظمة الحكم فقط، بل وفي المجتمع. هذا الوضع الضاغط خلال ثلاثين عاماً من الانتكاسات والترديات والحروب، وازدهار "خضراء الدين" وسط هذا كلّه، والذي أفضى في ما أفضى إلى قتل رفيق الحريري والاغتيالات الأخرى للحيلولة دون اكتمال بزوغ مشروع وطني لبناني وعربي في المنطقة، كلُّ ذلك أفضى إلى هذه التمرّدات في أوساط السنّة في لبنان والمنطقة، وأعظمها بالفعل ليس التمرّدات الطرابلسية، بل التمرّد السوري الهائل في تضحياته ومأساويته. إنّ أخطَر ما فعله نظام الاسد أمران: نشر حالة من عدم الأمان في الأوساط الشعبية العربية، وقد أدّى ذلك إلى الانقسامات على الأرض والتي تتفاقم اليوم: أنت إمّا أن تخضع أو تكون عرفاتياً أو حتّى موسادا! والأمر الآخر: التلاعب بالإعلام بعد التلاعب بالقضية العربية والانتماء العربي، وذلك من طريق استثارته واستخدامه وتوظيفه وخلق دور لدى الآخرين بحجّة مصارعة الأصولية والإرهاب. وإذا فسدت العروبة بين يديك وفسد الإسلام، فماذا يبقى للعرب؟!

الجهاديات الإيرانية و "القاعدية"

منذ العام 1976 يلعب الاسد في طرابلس، وتحت عناوين مختلفة. مرّة "البعث" في مواجهة الناصريين، ومرّة القوى الوطنية في مواجهة عرفات، ومرّة الدولة اللبنانية في مواجهة التطرّف. وأخيراً في عهد بشار الأسد وبصراحة: العلويون والشيعة ضدّ السنّة! ورفيق الحريري رائد الاعتدال السياسي، دخل على خطّ الاعتدال الديني منذ البداية أيضاً. وكان حادّ الوعي بضرر التطرّف وانفصاليته

وانقساميته. لكنه كان حادّ الوعي، أيضاً بأنّ جزءاً كبيراً من هذا التطرّف مصنوع. وقد ورّط السوريون الجيش في معركة في آخر العام 1999 ضدّ ما عُرف بمجموعة الضنية. وهي مجموعة مليئة بالاختراقات. لكنّ الحريري المُحرج جداً بسبب كثرة ما يعرف ومَنْ يعرف سارع إلى إصدار بيان بدعم الجيش والدولة وكان وقتها خارج السلطة، وفريقه كلّه مُلاحَق. ولستُ أقصد هنا وصف ما لاقاه الرئيس الحريري في عمله السياسي على مصاعب، إنّما أردت إيضاح صعوبات الاعتدال السياسي والديني. فهناك خللٌ كبيرٌ في المنطقة خلّفه أو أحدثه غياب المشروع العربي، وفي هذا الخواء الاستراتيجي في ما بين ضياعات وتضييعات صدام حسين وحافظ الأسد، وطغيانيات وترتيبات أقليات وطلائعيات الأنظمة العسكرية انفجر الإسلام الجهادي السنّي. والطريف أنّ الجهاديات الإيرانية ما اصطدمت بالجهاديات القاعدية إلاّ بعد العام 2011. وهذا يعني أنّ إيران الممسكة برأس الإسلام الشيعي، كانت تقف ولا تزال إلى جانب أنظمة الأقليات الأوليغارشية والطائفية. فلما انفجرت الثورات العربية دخلت إيران على خط مواجهة هذه الثورات، واضطرت إلى القتال مباشرةً بدلاً من الاستتار بالأنظمة وبالقضية الفلسطينية، واستجلبت هي وتركيا القاعديين إلى سوريا لأغراض متباينة، ولذا اصطدمت الأصوليتان السنّية والشيعية للمرّة الأولى في سوريا بعد العراق، وهما البلدان اللذان توجد فيهما تنظيمات إيرانية مسلّحة إلى جانب لبنان بالطبع. وكان على رفيق الحريري ومن بعده سعد الحريري و"تيّار المستقبل" مواجهة هذين المشروعين معاً: تصفية العروبة، وشرذمة الإسلام. منذ العام 1994 فيما أذكر قال لي ضابط سوري كان في حاشية غازي كنعان: رفيق الحريري وهّابي لأنّه تربّى بالسعودية. وقلتُ له: لكنّ سوريا الأسد حليفة السعودية! فقال: لكنْ على مضض لأنّنا قهرناكم! قلت: تعال نَعدْ إلى الحريري ووهّابيته، أين تراها أو أين ترى التطرّف فيها؟ فتحيّر قليلاً ثم قال: لا يريد إزالة الجيوب العرفاتية والسلفية في طرابلس! قلت: لكنّ المخابرات اللبنانية والسورية موجودة حيث لا يوجد الحريري، فلماذا لا تُزيلها إن كانت موجودة؟ فقال: هذه ثقافة أكثر مما هي أسلحة مادية على الأرض! وبالطبع فإنّ الوعي الإنساني ثقافة والوعي القومي ثقافة والوعي الديني ثقافة. وكما سبق القول فإنّ الوعي يقاوم

الواقع ولا يستجيب له. إنّما إذا استمر هذا الواقع وتردّى على مدياتٍ طويلةٍ فإنّ الوعي مضطرٌ للخضوع والاستجابة. وهذا ما حدث نتيجة الضغوط الأسدية على الناس باسم العروبة، والضغوط الإيرانية على الإسلام باسم المظلومية تارةً، وباسم المقاومة تارةً أخرى. رفيق الحريري واجَه الأمرين بأسلوبين متوازيين: اللملمة والاستيعاب ضمن السنّة لأنّه امتلك سمعةً أسطوريةً وثقةً لا حدود لها في صفوفهم – ومحاولة إقناع النظام السوري في لبنان بأنّ لا مصلحة له في استثارة الضغائن. وقد حاول ذلك بعد العام 2000 مع الأمين العام للحزب: لا مصلحة لكم ولا لنا في النزاع الشيعي ـ السنّي الذي بدأ بالاشتعال في العراق! لكنّ رفيق الحريري قُتل، وهم نجحوا في ما لم ينجح فيه السلفيون الجهاديون الذين يسمّونهم "تكفيريين": أثاروا النزاع الشيعي – السنّي الكامن أو المستثار بسبب تدخّل الإيرانيين في العراق وسوريا ولبنان والبحرين واليمن والكويت!

❋ لقد استطردْتَ إلى الوضع الراهن، وهذا أمرٌ حسنٌ لأنّه يوضّح مصائر الاعتدال السنّي؟

– "الاعتدال السنّي لا يزال هو الأصل وهو اللحمة الأخلاقية والمدنية والسياسية في لبنان. طبعاً هو ليس فريداً ولا وحيداً. إنّما لو تأملت المنطقة لوجدْتَ أنّ "تيّار المستقبل" هو الحزب المدني الوحيد في العالم العربي حيث لا تزال أكثرية المسلمين من دون تلوينات طائفية أو عصبية. كل الوقت يتحدّثون عن تحوّل السنّة إلى طائفة، وما كنّا كذلك ولن نكون. لدينا الانتظام الذي تبلور سياسياً أيّام جمال عبدالناصر. وهو لا يزال سائداً بفضل إحياء رفيق الحريري له وتجديده. ولدينا شجاعة ووعي وسلمية سعد رفيق الحريري، وشعاره: لبنان أوّلاً. ولدينا قبل ذلك وبعده هذا الصمود الهائل من دون سلاح ولا ميليشيا. ولدينا هذه الانفجارات التي تحدث بين حين وآخر نتيجة الضغوط والاختراقات. نحن لا نزال جماعة وطنية وعربية كبرى ومسؤولة. وهذه ليست بهورةً ولا تتجاهل المصاعب والاستنزافات. فرغم الظروف الصعبة استقبلنا نحن في مناطقنا في لبنان بين وادي خالد وشبعا وكفرحمام بأقاصي الجنوب حوالى المليون نازح سوري في بيوتنا ومزارعنا وهضابنا وسهولنا وطوايا مدننا، كما استقبلنا

الاخوة الفلسطينيين من قبل. لا بد لهذا الاستنزاف من آخر. نحن لا نحقد لكننا لا ننسى. لا إسلام من دون العرب، ولا عرب من دون عروبةٍ ودُوَلٍ وطنيةٍ مدنيةٍ ناجحة. لقد خرجنا في مطلع القرن من نير الترك، ولن ندخل تحت نير الإيرانيين. الاعتدال شرط وجود، لأنّ التطرّف مهما كانت أسبابه ومبرّراته، يظلُّ انشقاقاً. وأنا أراهن على حركةٍ إصلاحيةٍ جذريةٍ في الإسلامَين السنّي والشيعي. لا بهورة ولا مبالغة، فالأوضاع شديدة الخطورة، لكنّ الأوضاع لن تعود إلى ما قبل العام 2011. وإذا استطعنا كسْب كثرة من اللبنانيين لشعار "لبنان أوّلاً" ومقتضياته فأعتقد أنّنا سنكسب الوطن والدولة في النهاية لكل اللبنانيين، ولكل العرب".

(٦) هاني فحص

علماء الشيعة انحازوا إلى الاعتدال وموسى الصدر دفع الثمن

يتحدث العلامة السيد هاني فحص عن الاعتدال لدى كبار علماء الشيعة، خصوصاً في النجف، حيث عبّر مراجعها الكبار عن الاعتدال مبكراً في الشأنين العراقي والإقليمي، كما بقيت النجف على اعتدالها وعلّمت علماءها بالقول والفعل الانحياز الى الحرية والعدالة. ويتوقف عند تجربة كبار علماء الشيعة في لبنان الذين "كانوا منحازين الى الاعتدال والوحدة وتحمّلوا الكثير بسبب اعتدالهم". ويركّز فحص على تجربة الإمام المغيّب السيد موسى الصدر الذي "صبر على اعتداله ولم يبخل بدفع الأثمان حتى كان هو الثمن الأخير". هنا نصّ المقال:

أقل القليل من العقل أو العلم أو الدين أو الضمير يكفيك لأن تكون متطرفاً، وأن تنتقل من تطرّف الى تطرّف مضاد.. أما أن تكون معتدلاً فهذا أمر ليس سهلاً، ويحتاج الى مزيد من العقل والدين والعلم والضمير وتترتب عليه متاعب ومضايقات، ويحتاج الى صبر وأعصاب قوية وحسابات دقيقة، خصوصاً وإن إغراءات التطرّف قوية، فهو قد يكون مجلبة للمال والجاه والسلطان الحرام وإن كان جهنم الدنيا والآخرة في انتظاره بعدما يبلغ النهاية في ارتكاباته.

أما الاعتدال، فهو في المعتاد مجلبة للفقر والتواضع وإن كانت العزة نهايته، فهي لا تتأتى إلا بالمزيد من التضحيات، ولولا أن أهل الاعتدال، خصوصاً الذين جرّبوا جرعة أو فترة من التطرّف، لم تكن كافية لأن تجتث عقلهم وضميرهم، لولا أن هؤلاء يؤمنون بأن الاعتدال هو فضاء الحق والحقيقة، لما صبروا ولوقعوا في إغراء

التطرّف الذي يشبه إغراء الرذائل المعروفة والذي يعالجه الأتقياء بالعفّة.

وفي ما يعود الى الاعتدال في السلوك التاريخي لعلماء الشيعة الكبار، والالتزام الغالب لمريديهم والعاملين بفتواهم من الجمهور الشيعي الإمامي الإثنا عشري (الجعفري).. وفي ما يعود خصوصاً الى الاعتدال، في سلوك كبار علماء الشيعة المعاصرين، والمراجع منهم خصوصاً، يحسن الباحث أو الكاتب أو المتابع أو المتحدث، المعني بتظهير الحقيقة والحفاظ عليها حتى تكون حجة على أهل الفتنة لا لهم، يحسن أن ندقق في أي كلام نسمعه أو نقرأه أو نكتبه، حتى لا يكون المحسن والمسيء بمنزلة سواء. كما يحسن أن نلاحظ أن الظروف الصعبة تفرض على المرجع المسؤول أن يحتاط في كلامه، في بعض الأحيان يكون الاحتياط في الصمت، لأن حالات الهياج الحزبي والشعبوي، تشكّل خطراً على المرجع وعلى مرجعيته، إذا لم يتوخّ الدقة، والحرص على عدم المواجهة المباشرة مع الغوغائية.. من هنا تأتي قلة ما نسمع عن الآراء الفقهية لكبار المراجع في قم، وأعني المستقلين منهم، وهم الأكثرية الساحقة، في صدد المشهد اللبناني والسوري والإقليمي الراهن، أما مراجع النجف الكبار، فأكثرهم، والفاعلون منهم خصوصاً، قد عبروا مبكراً عن اعتدالهم في الشأن العراقي والشأن الإقليمي، ولعلها قلة ضئيلة من متعصبي السنّة، لم تقرأ بدقة إصرار السيد علي السيستاني والسيد محمد سعيد الحكيم والشيخ إسحاق الفياض، ومعهم كبار أساتذة الحوزة، على رفض الفتنة والتجزئة بين السنّة والشيعة في العراق، ومثلهم قلّة من الشيعة، كانت وما تزال تريد غطاء لعصبيّتها وتطرّفها، ولا تجده في كلام المراجع، فتتعامل معه سلبياً.. في حين أن علماء السنّة وجمهورهم الأكبر، وعلماء الشيعة وجمهورهم الأوسع، يعترفون لمراجع النجف بإصرارهم وصمودهم على الاعتدال ورفض الفتنة في الظروف الراهنة... ومن خلال التجربة، يقوم الأكثر وعياً بتفسير صمت المراجع أحياناً، بما يتطابق مع المعلوم منهم يقيناً من اختيار نهائي، عقلي وعلمي وروحي للاعتدال وأهل العلم والخبرة، يعبّرون عن قناعتهم بأن مقام المرجعية مقام رفيع، لا يتمتع به، أو لا يتمكن منه، بتسديد ولطف من الله تعالى بعباده، من لا يكون حريصاً على الوحدة وعلى الدماء والأعراض والعدالة والاستقامة

وأحوال الناس وأرواحهم ولا يمكن للعالم الحقيقي أن يبرر الإرهاب الرسمي أو الحزبي أو الفردي، ولا جور أي نظام، حتى لو كان شيعياً أو مدعياً للتشيّع، وقد كان نظام شاه إيران يدّعي حمايته للشيعة ويظلم الشيعة باسم الشيعة، وكان هناك إجماع لدى علماء الشيعة على معارضته وإدانته، بصرف النظر عن الدعوة الى إسقاطه واستبداله بنظام إسلامي أو غير إسلامي.

الإعتدال الشيعي لم يكن نظرياً

من هنا يبدأ فهم الاعتدال الشيعي، الذي لم يكن نظرياً ولا مرة.. وليس صدفة، أن يكون كبار علماء الشيعة في لبنان منحازين الى الاعتدال والوحدة، وإن دفعوا أثماناً باهظة، جراء اصطدامهم بالسياسات الطائفية التي تستقطب ذوي البضاعة العلمية المتواضعة... والسيد موسى الصدر والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد حسين فضل الله، أمثلة معروفة ومعروفة أيضاً الضرائب التي تحملوها بسبب اعتدالهم ومن القماشة نفسها تأتي مواقف المميزين من علماء الشيعة في لبنان، الذين يصرون أنهم يمثلون الثابت والعميق، في تاريخ الشيعة ومنظومتهم العقدية والفقهية والقيمية، المتجسدة في تاريخ العرب والمسلمين، إيثاراً مؤصلاً للسلام على الحقوق الطائفية المحقة وغيرها.

ومن معتدلينا في لبنان الإمام السيد موسى الصدر الذي صبر على اعتداله ولم يبخل بدفع الأثمان حتى كان هو الثمن الأخير، ولطالما انتُهك الرجل واتُّهم من هنا وهناك وهنالك، ومن الأقربين والأبعدين، ولكنه ظل شجاعاً الى آخر لحظة وأجبر أهل الضمير ممن لم يقصّروا في نقده أو شجبه أو إدانته، أجبرهم على إعادة قراءته وإنصافه إنصافاً لأنفسهم وذممهم ووطنهم وأهلهم.

والمفارقة الهائلة أن كثيراً ممن تربّوا تحت عباءته وحملوا رايته واجتمعوا في مكان سياسي أو آخر، أو أكثرهم، لم يستحضروا منه بعد تغييبه إلا الثانوي من فكره ومسلكه، بل ربما نسبوا إليه أفكاراً وأهدافاً وشعارات وسلوكيات كان يعافها وينفر منها.. فلم يُعرف عنه أنه شتم العرب، حتى الذين صنّفوه عميلاً بسبب معلومات

عملائهم الغشاشين، ومعروف أن جمال عبدالناصر قد اندهش عندما التقاه في القاهرة وأفضى له بما كان قد كوّنه عنه من صورة مشوّهة.

ويذكر رفيقه في رحلته، زهير عسيران، أن محمد حسنين هيكل التقى الإمام في مبنى "الأهرام" واستعرض معه تجهيزاتها ومنها صندوق كبير (كومبيوتر) أواخر ستينات القرن المنصرم وسأله الإمام عن وظيفته فأجرى له تجربة أمامه: كتب اسم موسى الصدر، فخرجت المعلومة تقول: عميل أميركي!!!

وتجربته المبكرة مع المملكة العربية السعودية التي لم تكن في القرن الماضي أكثر انفتاحاً على الشيعة من الآن، كانت سابقة شجاعة واكتشافاً لموقع المملكة العميق في حياة العرب والمسلمين، بعيداً عن الأفكار السلبية المتداولة وبعيداً عن الصورة النمطية المبالغ فيها عن الشيعة اللبنانيين لدى المملكة، وعن المملكة لدى شيعة لبنان.

السيد موسى الصدر تربّى في كنف مرجعين في الاعتدال المسلكي والعلم الإسلامي والفقه خصوصاً، هما والده السيد صدرالدين وعمه السيد حسن الشهير جداً وكان المرجع الأعلى في قمّ حتى أربعينات القرن الماضي، حيث تكرّست مرجعية السيد حسين البروجردي، الذي قاد حركة الاعتراض ضد النظام، وانقطع أربع سنوات في أصفهان لدراسة فقه المذاهب الأربعة، وظهر في دروسه قدر كبير من احترام هذا الفقه، انعكس على فقه تلامذه الكبار احتراماً للاختلاف وسعياً الى تحرير المشتركات (الشيخ حسين علي منتظري مثالاً) وتحت ظل هذا المرجع (البروجردي) نشطت مجموعة مميزة، ثورية ضد النظام، ومعتدلة مع الشركاء وإن اختلفوا، منها الشيخ مرتضى مطهري والسيد محمد حسين بهشتي، والسيد موسى الصدر، الذي قال عنه بهشتي: كان أذكانا، حيث عملت هذه المجموعة على ربط الحوزة بالجامعة، وربط العلوم الحوزوية بالحقول المعرفية المختلفة، وبالمطالب الاجتماعية الملحة (الحرية والعدالة).. ولم يأت السيد الصدر الى لبنان ليخلف إمام الاعتدال السيد عبدالحسين شرف الدين في صور، مباشرة، بل مر بالنجف التي كان اي عالم ايراني يشعر بالحاجة الى المكوث في فضائها العلمي مدة، ليكتسب توقيعها على علمه واجتهاده..

واختار السيد الصدر ان يقضي اربع سنوات في اطار جمعية منتدى النشر، قريبا من مؤسسها الشيخ محمد رضا المظفر، لتتحول على مدى عقود الى مؤسسة رائدة في نشر العلم والمعرفة والفقه المقارن بما يلزم ذلك من انفتاح على فقه المذاهب الاخرى وتبادل المعرفة والاحترام معها. وكانت كلية الفقه أحد أهم منجزات هذه الجمعية، حيث تلقينا دروسنا في العلوم الدينية والفلسفة والعلوم الانسانية والآداب، على يد فريق واسع من الاساتذة من بغداد والقاهرة، ومن كل الأديان والمذاهب والحساسيات الفكرية (حتى الشيوعية والوجودية) وبانسجام تام.. ومن خلال الكلية تابع الشيخ المظفر وخليفته عليها السيد محمد تقي الحكيم خط التواصل الذي رسخه المرجع الشيعي محمد حسين كاشف الغطاء في مؤتمر القدس (1936) حيث كان امامه منسجما مع تأسيس الشيخ محمد تقي القمي لدار التقريب في القاهرة.. وعملت منتدى النشر برعاية المرجعين الاعتداليين الكبيرين السيد محسن الحكيم والسيد ابو القاسم الخوني وما زلنا حتى الان نجهل مذاهب ثلث اساتذتنا في كلية الفقه.

ولكن تعرض الامام الصدر للتجريح على هذا التواصل ومن كل الأصناف والطوائف، وقد كان بين من جرحوه وادانوه مجموعة من الطامعين، وآخرون عادوا ليسلكوا مسلكه نفسه بقليل من العزة والوقار.. ولا ننسى انه كان شجاعاً عندما تواصل مع المرحوم الملك الأردني الحسين بن طلال في وقت كانت فيه حركة التحرر العربي تنعت الملك بشتى النعوت القاسية، وهو الذي تجاوز كل شيء ونسي كل الاساءات وشارك في حرب عام 1967 باندفاع وصدق وبالتناغم مع المرحوم جمال عبد الناصر متناسيا ما نزل به من ظلم فادح ليثبت اصالته وعروبته العميقة.

وعاد بعد سنوات من احداث ايلول الى بناء علاقة ودية عميقة بالمرحوم الرئيس الشهيد ياسر عرفات، وصلت الى حد متابعته التفصيلية لوضعه الصحي الدقيق بعد حادث الطائرة المعروف، حيث كان في شبه اقامة الى جانبه في المستشفى في عمان، بعد اجراء عملية في رأسه، كان للملك حينها دور اساسي في اقناعه باجرائها طلبا للطمأنينة والوقاية.. وبذلك اثبت الملك حسين انه خصم شريف، يسامح بعد ان يصارح، الى هاشميته التي هي تكليف اضافة الى تشريفها، وهذا ما اخذه السيد

الصدر في الاعتبار.. ونحن نقدم هذا الشاهد توكيداً لتوازن الامام الصدر من بداية حياته، وقد مكّنه ذلك من الجمع بين صداقة الملك وصداقة أبي عمار.

ومن مآثر الامام الصدر انفتاحه المبكر على دولة الكويت والامارات العربية المتحدة والبحرين فضلا عن المغرب والجزائر التي ظل لفترة طويلة نجم مؤتمراتها الفكرية الاسلامية.

وأفضى به اسلامه وايمانه وهاشميته وعروبته ووطنيته اللبنانية الى الغاء كل الحساسيات والارتفاع فوقها، ومن هنا كانت علاقته بليبيا من اجل لبنان لا من اجل شيء آخر ولا على حساب طرف آخر وإنما هو الاعتدال الذي يجعل صاحبه صادقا في علاقته بالأطراف المختلفة او المتعارضة.

ومن هنا بالذات كانت علاقته بسوريا من اجل لبنان وفلسطين وسوريا.. ولهذا السبب شعر بأن المطلوب تهميشه.

أشرف المواقف وأشجعها

كان همه ان لا تصل العلاقة بين سوريا والمقاومة الفلسطينية الى الصراع، والقتال لأن ذلك ضد مصلحة الجميع.. ويذكر المتابعون انه ذهب عام 1976 وفي اللحظة الأخيرة الى دمشق بناء على طلب من المرحومين ياسر عرفات وخليل الوزير لعلهم يتجنبون انفجار الصراع بين دمشق والمقاومة، وكانت فرصة للمغامرين المرضى بالتطرف فداهموا منزله لأنهم لا يريدون نجاح مهمته الاعتدالية.. وانفجر الصراع، وإذ بهؤلاء بعد فترة ينتقلون الى دمشق.

ان اشرف وأشجع وأهم موقف واشده ثباتاً واتزاناً وتوازناً وشفافية في الحرب اللبنانية القديمة والمتجددة باشكال مختلفة، والتي لم يدخر الامام الصدر وسعاً من أجل منعها أو ايقافها مرة بعد مرة، وبالتعاون مع أهل الاعتدال (البطاركة صفير وخريش وهزيم والشيخ محمد ابو شقرا والمفتي الشهيد الشيخ حسن خالد الى المرحومين صائب سلام ورشيد كرامي وكمال جنبلاط وريمون اده فضلا عن عدد من الشخصيات الشيعية التي كانت على خط الامام).

اشرف المواقف وأشجعها كان موقف الامام الصدر الذي اختار موقعاً اعتدالياً وسطياً تسووياً معادياً للحروب والفتن، بين جميع أطرافها، بين "الجبهة اللبنانية" التي كان يتفهمها وينقدها ويشجب، والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية التي كان يتفهمها وينقدها وبشجب... ويحب الجميع في لحظة ويكره الجميع في لحظة أخرى، يحبهم عندما يقتربون من لبنان وسلامه وأمنه واستقلاله وسيادته ووحدة ارضه وبنيه، ويحبهم عندما تكون فلسطين ملتقى عقولهم ووجدانهم وذاكرتهم المشتركة ومصيرهم المشترك.. ويكرههم عندما يقولون ويفعلون ما يفكك الوطن ويبعد فلسطين عن مرمى القلب والأمل، وكان وسطاً بين الاجتماع اللبناني الذي استقوت عليه الدولة وبين الدولة التي اغرت الاجتماع بالاستقواء عليها، فكان مقرا بان المجتمع مظلوم ولكن لا يجوز ان يبالغ في مظلوميته بتحريض من اطراف حولها اسئلة كثيرة، حتى لا يؤدي ذلك الى سقوط الدولة، التي سقطت فعلا على رؤوس الجميع بفعل الجميع، وصارت دويلات وديكتاتوريات مطلقة. اصر هو على اعادة بنائها بجهود الجميع وبالجميع من اجل الجميع.. كان وكأنه من المدرسة الهيغيلية في ايمانه بالدولة، عفواً، الأدق انه كان مسلماً محمدياً يقرأ قول الرسول (ص): "يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن". وقول (ص): "سلطان غشوم خير من فتنة تدوم". وقرأ بعد ذلك قول علي (ع): "لا بد للناس من امير الخ". إن كنت قد أطلت فاني ادعو الى قراءة موسى الصدر الآن لتفادي ما هو اعظم من عدم انتباهنا الى موقع الدولة المميز في ضرورات اجتماعنا اللبناني والعربي.. ولو اطلت لجمعت نصوص الامام الصدر الذي دافع باندفاع وقوة عن الجيش اللبناني وركز على كونه رافعة الدولة والاجتماع والوطن والسيادة والحرية. وعلى ضرورة ان تكون علاقة المقاومة بالدولة والجيش علاقة تكاملية.

الصبر على الإعتدال

ختاماً، لدي مفارقة اريد ان اذكرها لأذكر المعتدلين بضرورة الصبر على اعتدالهم.. ويقول علي (ع): "ما ترك لي الحق من صاحب"، وقول الله عز وجل "خذ

العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين". واذكر المتطرفين الذين يصنفون المعتدلين عملاء ذات اليمين بأن هناك من يصنفونهم عملاء ذات اليسار وهذا يدل على ان التطرف باطل وان الاعتدال هو الحق.. وإذا كان كومبيوتر "الأهرام" قد صنف موسى الصدر عميلا فاني قرأت في وثائق السافاك المسجل عليها "خيلي محرمانه" اي "سري جداً"، وأنها حظيت بمطالعة جلالة الشاهنشاه ما مضمونه: "ان موسى الصدر قد حول المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى الى مجلس يساري وشيوعي وانه أنشأ حركة المحرومين وسلحها لتكون ظهيراً للمقاومة الفلسطينية وفصيلا من فصائل فتح ومنظمة التحرير وأن هناك سعياً جاداً لتهيئة بديل له، بين قوى سياسية لبنانية مختلفة وقد قطعت الجهود في هذا الصدد شوطاً متقدماً".

كان السيد موسى الصدر تلميذاً وفياً لنهج علماء الشيعة الكبار في النجف، من ايرانيين وعرب، صهرتهم الحاضرة العلمية والروحية العربية العراقية المنفتحة على طول وعرض العالم العربي والاسلامي.. هؤلاء العلماء ناصروا بقوة الثورة الدستورية في استانبول وشقيقتها (المشروطية) في ايران، على مطلب الديموقراطية، ليثبتوا مرة أخرى ان التقارب هو ثمرة الحرية والتباعد ثمرة الاستبداد. وقد بعث عشرة من كبار المجتهدين العرب والايرانيين رسالتين موقعتين ومختلفتين واحدة الى السلطان العثماني محمد رشاد الذي أعلن (ثم تراجع) عن تمسكه بتطبيق الدستور، خاطبوه فيها باسم الحوزة بلقب الخلافة مؤيدين، والثانية الى السلطان القاجاري (الفتى) الذي تلكأ في دعوة البرلمان المنتخب على اساس الدستور الى الانعقاد، انبوه فيها وهددوه بالويل والثبور، بعدما وصفوه في رسالتهم الى السلطان العثماني، بالصبي المجنون.

بقيت النجف على اعتدالها، وعلمت علماءها بالقول والفعل الانحياز الى الحرية والعدالة، واعطاء الأولوية للسلام الأهلي على حق الجماعة المطلبي، السياسي وحتى الحياتي مع الاحتفاظ بحق الاعتراض، والقدرة على التوقف عن الاعتراض عند الضرورة، كما فعل السيد الصدر، عندما عارض الدولة ثم عاد الى مساندتها عندما اصبحت في خطر.

آخر كلام للامام.. السلاح ليس الحلّ

مقتطفات من كلام الامام الصدر لبعض وسائل الاعلام

❋ ما هو الحل في رأيك؟

– السلاح ليس هو الحل اطلاقا بل علينا ان نُكوِّن الدولة العادلة ولنطلب منها ان تحمينا.

❋ ما رأيك في القرار الذي اتخذ حول ارسال الجيش اللبناني الى الجنوب؟

– موافق مئة في المئة على نزول الجيش إلى الجنوب مهما كانت هويته السياسية..

❋ لكن اسرائيل كانت لها مطامع في احتلال الجنوب حتى الليطاني؟

– هذا منطق مرفوض، ان اسرائيل تحتل الجنوب لانها تريد ذلك، صحيح ان مطامع اسرائيل التاريخية معروفة في الدول العربية لكن ليس من واجبنا اعطاؤها المبرر العالمي..

غير ان المشكلة لم تكن في التسلل الفدائي بل كانت في اطلاق الصواريخ والقنابل على اسرائيل عبر الجنوب وهذا امر غير مسموح به على الاطلاق، فاطلاق الصواريخ والقنابل لا يعد عملا فدائياً أو ثورياً ابداً..

❋ لكننا بالفعل في حالة حرب مع اسرائيل؟

– لا.. نحن نعيش ضمن هدنة عقدت بيننا وبين اسرائيل حتى إشعار آخر.

(مجلة الدستور ـ 26/6/1978)

القضية والجيش

.. أما اليوم فأمام هذه القضية يبدو الوقت مناسباً جداً لانطلاق الجيش اللبناني وتسلمه المسؤوليات وسوف يلتف الجنوبيون بجميع ابنائهم حول الجيش فيخلقوا منه قوة مقدسة حتماً وهذه افضل وسيلة للأمان في المنطقة.

(صحيفة النهار 1978)

• وإلى أين يمضي الموقف في الجنوب؟

– وهناك عنصر آخر وهو "الإدراك المغلوط" لبعض جبهات الرفض الفلسطينية وبعض المتطرفين من اليسار اللبناني من ان التوتر في الجنوب يبقي البقية الفلسطينية حية ضاغطة على الضمير العربي ولا شك ان هذا الادراك مع شعور اليمين المتطرف اللبناني.. يلتقيان مع الخطة الاسرائيلية

(روز اليوسف المصرية 7 ـ 11 ـ 1977)

داخل المقاومة الفلسطينية كل دولة عربية لها جناحها الذي تموله لخدمة مصالحها الخاصة: البعض يعتمد أسوأ المواقف السياسية لمنع اقرار أي حل، أو أي مفاوضات قد تجري مع اسرائيل.

(صحيفة اللواء 9 ـ 3 ـ 1978 ومجلة الراية 19ـ3ـ1978)

(٧) سليمان تقي الدين

لا إيديولوجيا خاصة للدروز
ولا خطاب دينياً يوجّهونه إلى الآخرين

يتناول الكاتب السياسي المحامي سليمان تقي الدين الاعتدال كسمة ثابتة في تاريخ طائفة الموحدين الدروز باعتبار أن أتباع هذا المذهب "لا يسعون إلى ضم الآخرين إليه أو إلى تغيير معتقدات الآخرين ولا يدعون إلى التبشير"، وهذا ما دفعهم إلى "الاكتفاء بالتعايش مع الاتجاهات الدينية والفكرية المختلفة كما هي".

ويرى أن عدم وجود "عقل تحريمي" لدى الدروز، جعلهم يجدون أنفسهم دائماً في موقع الاعتدال، مستشهداً بحقبة لا يزال التاريخ يستذكرها في كل محطة مفصلية، هي أحداث العام 1860 الطائفية والتي وجد الدروز أنفسهم خلالها في مواجهة المسيحيين، وفور انتهاء تلك المحنة "مسح الدروز من ذاكرتهم تلك الأحداث وانخرطوا مع الموارنة في بناء المتصرفية"، مشيراً إلى أن معظم أبناء النخبة من الدروز الذين لعبوا دوراً مميزاً لاحقاً في بناء لبنان الكبير وكوّنوا مع المسيحيين تيارات سياسية مشتركة، كانوا "من خرّيجي مدارس الحكمة والفرير وعينطورة، وهي المدارس المسيحية المارونية بامتياز".

وفي ما يلي نص الحوار:

• كيف يمكن الإضاءة على تاريخ الموحدين الدروز واعتدالهم سواء داخل بيئتهم أو من حيث علاقتهم بباقي الطوائف؟

– "إذا أراد الدرزي أن يكون منسجماً مع هويته التاريخية سواء المذهبية أو

الدينية، أو ما تراكم عبر التاريخ من شخصية سياسية ومن إرث سياسي، يجد نفسه دائماً في موقع الاعتدال، باعتبار أن مذهب الدروز هو مذهب يعتقد أن الحقيقة واحدة، وأن الأديان هي مسالك متعدّدة لهذه الحقيقة. وهذا المذهب لا يسعى إلى ضمّ الآخرين إليه أو إلى تغيير معتقدات الآخرين، كما لا يدعو إلى التبشير، بل يكتفي بأن يتعايش مع هذه الاتجاهات الدينية والفكرية كما هي، وبالتالي ليس لدى الدرزي بهذا المعنى، حافز لأن يحكم على الآخرين سلباً في اعتقاداتهم أو أن يعتبر نفسه مالكاً للحقيقة بينما الآخرون هم على خطأ في هذا الموضوع.

هذه البذرة الثقافية أعطت الدروز تاريخياً طابعاً ليبرالياً، فهم تعايشوا مع كل الثقافات والأديان، وهم بصورة خاصة يعتبرون أنفسهم جزءاً من منظومة الثقافة العربية الإسلامية، وفي الوقت نفسه يعتقدون في عمق مذهبهم أن المسيحية مكّون أساسي بالمفهوم الديني والمفهوم الحضاري العربي. ليس لدى الموحدين الدروز إذاً، عقل تحريمي بهذا المعنى. طبعاً الدروز في نظامهم الاجتماعي، وهذا ظهر في بعض الأماكن بصورة نافرة، لا يقيمون تزاوجات مع الطوائف الأخرى، لكن ذلك أساسه في المجتمع الريفي والزراعي التقليدي وهو موجود في كل الطوائف الأخرى تاريخياً، أضف إلى ذلك أن البيئة الدرزية لم تحاول في أي مرة أن تقفز إلى مستوى مديني معيّن، وبالتالي فهذا التقليد موجود لديهم.

وحتى ضمن الطائفة الدرزية، كان نظام الزواج الاجتماعي خلال فترات تاريخية طويلة، له علاقة بالمراتبية. إذاً، هذه ظاهرة ليس لها علاقة بعمق الفكر المذهبي، أو على الأقل لنقل إن لها علاقة ببعض اتجاهات التفسير الخاطئة التي يمكن أن تكون موجودة في المذهب. أمّا سياسياً، وهذا هو الأهم، فالدروز لم يكونوا يحملون في أي يوم عبر التاريخ مشروعاً سياسياً خاصاً، بمعنى لم يطوّر الدروز في يوم من الأيام فكرة الربط بين الكيان السياسي وهويتهم الطائفية.

وإذا أخذنا التجربة القريبة من الأذهان، أي العمق التاريخي لتجربة الأمير فخر الدين، فمعروف أن هذه الإمارة استجلبت الآخرين وجذبتهم إلى أحضانها أكثر، ولم

تكن هناك حواجز مع الآخرين، وأقامت نظاماً من التعايش يشهد الكثيرون أنها كانت ذات طابع ليبرالي ومتسامح، وأسسوا لشراكة يُعتقد أنها أسست للكيان اللبناني. في ما بعد، ادّت النزاعات الاجتماعية والسياسية، وهي قائمة وموجودة وقوية في التاريخ، إلى فترات تطرّف، سببها أنه عندما شعرت الجماعة بشكل عام أنها مهدّدة في وجودها، أو عندما نشأت بعض التيارات السياسية التي لديها مصالح حادّة في وجه الآخرين، وقعت بعض الصدامات.

لكن اللافت أنه ما أن انتهت أحداث العام 1860، وهو الحدث التاريخي الذي يُستحضر دائماً في الصراعات الطائفية لأن حرباً طائفية وقعت في حينه، فبعدها فوراً، مسح الدروز هذه الذاكرة، وانخرطوا مع الموارنة في بناء المتصرفية بشكل مذهل، إلى درجة أن كل النخبة الدرزية التي لعبت في ما بعد دوراً مميزاً في لبنان، كانت من خريجي "الحكمة" و"الفرير" و"عينطورة". لقد انخرطوا في عملية واسعة، وبالتالي فإن جزءاً من الحداثة الدرزية له علاقة بصلة الدروز آنذاك بالموارنة، ولاحقاً كوّنوا معهم تيارات سياسية مشتركة في مطلع القرن العشرين، وهذه تدلّ على حقيقة بعضها أو أساسها واقعي وليس لها علاقة بالخيارات فقط، وهي أن هذه الجماعة الدرزية ليس لديها ارتباط عضوي بخيارات أكبر من موقعها التاريخي والجغرافي والديموغرافي، وبالتالي عاشت في هذه البيئات، وعرفت كيف تتكيّف معها، وهذه ظاهرة من ظواهر الاعتدال.

ولم يشعر الدروز رغم أنهم تحوّلوا إلى أقلية أثناء عهد المتصرفية، بقلق شديد من هذا النظام، فأسسوا مع المسيحيين هذه التجربة، ويقول كل المؤرخين أن الدروز في هذه التجربة كانوا راضين بالوضع وأن معظم النزاعات كانت درزية داخلية في ما بينهم، أي حول من يتولى القائمقامية أو من يكون الزعيم أو ما إلى هنالك. بعض هذا الكلام قد يفيد أنه تحديد طموح للدروز، وهذا صحيح بمعنى أنهم ليس لهم مشروع آخر. ويقول لي في هذا المعنى صديق أن الدروز أقلية ويعون أنهم كذلك في حين أن مشكلة الموارنة أقلية لكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك.

انسجام تراثي مع المحيط

المحطة الثانية هي التحول الذي حدث في نهاية الدولة العثمانية. إجمالاً إذا قرأت تاريخ الدروز خلال مرحلة الدولة العثمانية، تجد أن الدروز شعروا بانسجام تراثي مع محيطهم، وهذا كان يشاركهم فيه الجميع حتى الموارنة الذين ظلوا يتحدثون حتى اللحظة الأخيرة بالاتجاه العثماني على أساس اللامركزية والاحتفاظ بامتيازات جبل لبنان، وهذه أيضاً كانت حال الدروز رغم أنهم فُصلوا عن بعض مكوناتهم المحدودة أي إقليم البقاع ووادي التيم وبلاد حوران رغم التواصل في المشاعر والتضامنات الطائفية الموجودة والتي هي في أساسها اجتماعي ليس طائفياً فقط حيث أن هناك عائلات مندمجة، لكن هذا الشعور لم يكن أساساً في تحديد مساراتهم السياسية، لذا في الغالب يمكن القول على الرغم من التضامن الموجود، لا يمكن القول إن هناك مشروعاً سياسياً واحداً للدروز في لبنان وسوريا وفلسطين، فمسارات الجماعة كانت تتكيّف مع الآخرين وهم يعيشون في هذه البيئات من دون أن يكون لديهم حوافز صدامية مع الآخرين، وهذه من ميزات الاعتدال الدرزي، وحساباتهم بُنيت على هذا الأساس.

عندما طرحت فكرة لبنان الكبير، كان الدروز ميالين إلى هذه الفكرة بشكل عام مثلهم مثل المسيحيين الذين طرحوا في البداية الاتحاد السوري على أساس دولة مدنية ومملكة مع الاحتفاظ بخصوصيات جبل لبنان، وهو ما كرسه أول دستور عربي، دستور الملك فيصل من حيث إقامة دولة مدنية دستورية مع الاحتفاظ بخصوصيات جبل لبنان. لم يكن الدروز بعيدين عن هذه الاتجاهات. طبعاً للدروز صراعات تاريخية عنيفة تذكر مع الدولة العثمانية عبر قرون عدة ولاحقاً في مرحلة "التتريك"، وكان سببها الرئيسي الضغط السياسي والاجتماعي على تكوينهم وبيئتهم ومجتمعهم ومحاولة السيطرة على مسارهم وتقاليدهم. فمثلاً عندما نقول إن سلطان باشا الأطرش ثار من أجل أدهم خنجر على سبيل المثال، فلذلك دلالات سياسية كثيرة لكن الأساس هو أن لديهم عادات وتقاليد اجتماعية يريدون المحافظة عليها في وجه الضغوط وليس في وجه محاولات التطور المسالم".

الدروز شعب مسالم

*** بشكل عام يمكن القول إن الدروز لم يتطرفوا إلا حين هدّدوا أو شعروا بمخاطر في وجههم؟**

– حتى في منتصف القرن التاسع عشر يقول المؤرخون والرحالون الذين قدموا إلى المنطقة بشكل خاص، إن الدروز شعب مسالم وهادئ كمجتمع. لكن في كل مجتمع اتجاهات سياسية، والاتجاهات السياسية فيها مصالح تحرّكها، وعلى هذا المستوى يمكن أن يكون هناك تيارات تصادمية لدى الدروز، لكن في الإجمال، فإن شعور هذه المجموعة في هذا التاريخ الممتد على مدى 400 عام لم يكن تصادمياً، وهذا له علاقة جزئياً بالهوية وجزئياً بالموقع. ولكي نكون واقعيين، فهذه المجموعة المحدودة لم يكن لديها طموح بأن تشكّل محيطها كما تشتهي هي، لأنها تدرك حجمها وهذا أساسي. واللافت هنا وهو ما جرى السكوت عنه تاريخياً ويجب أن يظهّر، فإن جزءاً كبيراً من تراجعات الدروز من حيث الحضور والموقع والحجم له علاقة بالصراعات الدرزية الداخلية أكثر من الصراعات مع الآخرين. فالصراع بدأ قيسياً ويمنياً وهذا ما شكّل حالة من حالات التهجير.

واللافت أن الدروز قاوموا الانتداب الفرنسي لكن ذلك كان له علاقة بتطويعهم من سلطات قوية تعتدي على كيانهم، وهو ما حاول الفرنسيون القيام به، وبالتالي تمرّدوا. عندما تشكل لبنان الكبير انخرط الدروز فيه لكن الاختلافات في ما بينهم عكست الصورة نفسها التي كانت لدى الآخرين مثل المسيحيين من حيث التردد. بمعنى أن الاتجاهات السياسية المتعددة كان لها علاقة بأفكار مختلفة لكن من حسم الأمر فيها لم تكن الطوائف بل القوى الدولية التي رسمت الحدود ورضخ الجميع للأمر".

*** ماذا عن بروز حالات من التطرف أو التقوقع لدى الدروز بين فينة وأخرى؟**

– "في قراءة المذهب الدرزي ارتباك وتباين تاريخي، بين اتجاه يركّز كثيراً

على الخصوصية والكيانية المذهبية الدرزية ويجعل من هذا الشيء حاجزاً أمام التواصل مع الآخرين، هذا موجود لكن ذلك ليس عداءً أو تطرفاً. هناك من يقول إن الدروز عالم خاص لا علاقة له بالآخرين، بمعنى أنني مذهب مستقل وبالتالي لا أتشارك مع الآخرين، لكن ذلك لم يؤثر إطلاقاً على المنحى العام للدروز، حيث أن التيار الغالب في التاريخ الدرزي هو الذي يميل الى أن الدروز جزء من مكوّن أوسع إسلامي وعربي وبالتالي أكثر رحابة في التعاطي مع الآخرين في هذا الموضوع، لكن هذا التباين لم يكن يوماً مؤثراً في الخيارات السياسية الجذرية.

لم يتحدث أحد يوماً عن التطابق بين الهوية والكيان، أو أن لديه مشروعاً متمايزاً عن الآخرين. في التطرّف، هناك ظاهرة شهدها لبنان بعد الاستقلال، طبعاً الدروز كانوا في التيار الاستقلالي وبهذا المعنى كانت الأكثرية الساحقة الدرزية مع هذا الاتجاه، حتى الآخرون الذين كان لديهم تحفّظ تجاه الفرنسي التحقوا بسرعة مع الاستقلاليين. في أحداث العام 1958، الجميع يعرف أن الدروز آخر من انخرطوا في هذه الثورة وهو ما يؤخذ عليهم في بعض الأوساط. الدروز كانوا دوماً مع الوطنية اللبنانية والعروبة، لكن في ركائز التفكير الدرزي كان هناك دائماً توازن بين الوطنية والعروبة، أي الانسجام مع طموحات العرب وقضاياهم وشواغلهم من دون التفريط بمسألة الكيان اللبناني، لم يتخذ الدروز يوماً خيار إزالة الحدود الوطنية اللبنانية. حتى أثناء الحرب الأهلية اللبنانية فإن الدروز رغم انخراطهم في المعركة السياسية بقوة، فإن معركتهم الحربية تأخرت كثيراً. وعندما فتحت هذه المعركة، فإن الأكثرية الدرزية لم تشارك فيها وهذا أمر معروف، ففي حرب الجبل في العام 1976 من المعروف أن الدروز كانوا أحجموا عن الدخول في التيار التصادمي، وكان لذلك نتائج. لم يعبأ الدروز لعمل هجومي، كانوا مترددين في ذلك، بصرف النظر عن أن موقفهم السياسي هو مع التغيير والإصلاح وأنهم متضامنون مع القضية الفلسطينية، لكن شعورهم العام كان أن ذلك يرتّب صداماً أهلياً كبيراً وتباعداً مع طوائف أخرى.

في الثمانينيات الأمر كان له صلة بالعلاقة الوجودية وهم استنفروا لدرجة أن الفواصل السياسية بينهم ذابت، فتوحدوا حتى أن خلافاتهم الداخلية سقطت أمام هذا

التحدي. في تلك الأحداث هذا النوع من التشنجات يجلب تطرفاً لفظياً وتطرفاً في الممارسة لكنه أيضاً عند الدروز لم ينم عن مشروع انفصالي، بمعنى أن الجماعة قررت أن تعيش وحدها أو أن تقطع جسورها مع الآخرين، فما إن انتهى الصراع حتى عاود الدروز سعيهم، ولا نقول إنهم وصلوا إلى نتيجة، لكنهم سعوا إلى إعادة صياغة هذا الكيان اللبناني. في السنوات الأخيرة التي شهدت بعض موجات التطرف السياسي، فإن ذلك لا يعكس أبداً مزاج الأكثرية الدرزية. هذه تيارات سياسية لها مواقف. إجمالاً تجاوز خطابها حتى في المأثور الثقافي الدرزي، ما يسمّى اللياقات الدرزية، فالدرزي معروف عنه حسن أدبه في التعامل وحفظ اللسان. هناك توتر موجود وسببه الاحتقان السياسي، لكن أساس الموقف كان ينم عن حالة ضيق رغم أنه تجلّى في اندفاع باللهجة والحدة، ولا يمكن تسميتها بالتطرّف. فثلاثون عاماً من الوصاية على لبنان أنشأت نظاماً من الكبت والاعتداء على الحرية، وهذا شعور لبناني جامع، بمعنى أن اللبنانيين يريدون الحرية، ليس ذلك فقط بل عندما طالبوا بها، تعرضوا لعملية دهس خطيرة، فووجهوا بسياسة قمعية مثل الترهيب والاغتيال.

هذا التوتر في الخطاب له علاقة بأساس موضوعي بصرف النظر عن لغة الخطاب. ومع أن الأمور ذهبت بعيداً في شطحات سياسية لكن لم يكن لها أفق ينم عن قطع جذري مع الآخرين لا في البلد أو حتى خارج البلد. بعض هذا الخطاب يريد أن يضع حداً لما يعتقدون أنه حالة من التمادي في سياسة خاطئة، لكنه لا يريد تغيير العالم ويخضعه لمشروعه، لذلك لا يمكننا تصنيفه في خانة التطرف. هناك بعض التعبيرات السياسية ذات اليمين وذات اليسار وهي تعبيرات فطريات أكثر مما هي في عمق المسألة وتذهب في حالة التطرف لكنها حالة من الاستثمار السياسي ولا تنم عن شعور الجماعة بأنها تتخذ خيارات توصف بالتطرف.

في الفترة الأخيرة حكي كثيراً عن تيار ديني سُمّي أصولياً لدى الدروز، وهو موجود، هذا صحيح، هو موجود بالمعنى الفكري والثقافي منذ زمن بعيد. لقد تعرفت عليه مثلاً في الثمانينيات، وهو لديه اتجاه تفسيري للمذهب له علاقة بشيء داخل النظام الاجتماعي وسلوكيات المذهب الدرزي ولم يكن له بعد سياسي، وكان موجوداً

في بعض القرى. إنه نزاع دعاة إذا صحّ التعبير، ولم يكن له يوماً بُعد سياسي، لكنه تشرنق وتصلب في فترات لاحقة. وعملياً في السنوات العشر الماضية أخذ بعداً تنظيمياً متشدداً. كونه يركز على الخاص الصافي بالمذهب بالمعنى الأصولي، أي أنه مذهب فكري خاص، كان له تعبير سياسي لاحقاً تجاه الآخرين، عندما وقع الصدام في 11 أيار ظهرت هذه الجماعة إلى السطح بصفتها جماعة معتدّة بهويتها لا بشيء آخر، لكنها لم تفكر ولا للحظة واحدة، في تجاوز حدودها، بمعنى التركيز على الخلاصية والمذهبية. لذلك لا تجد لديها تعبيراً سياسياً رغم أنها شاركت في أحداث 11 أيار للدفاع عن بعض المناطق. لكن جرى تضخيم هذه الظاهرة وتوظيفها سياسياً، سلباً وإيجاباً، فأحدهم يقول إن هذه الظاهرة جزء من منظومة المقاومة لدى الطائفة، فيما يرى الآخرون أنها ظاهرة عدائية. بصراحة هي ليست كذلك. ما يسمّى بجيش أبو ابراهيم أو غيره فتعبيرات إسقاطية عرفت خلال الحرب مفهومها أن رجال الدين انخرطوا في الحرب وأخذوا اسماً خاصاً بهم. لكنهم لم يكونوا يوماً منفردين في قرارهم بل جزء من المنظومة الدرزية العامة".

الكيان اللبناني ضمانة

*** كيف تقوّم علاقة الدروز بباقي الطوائف خصوصاً في ظل المد المتطرف الذي يقترب من المنطقة؟**

– "الشعور الدرزي العام هو أن الكيان اللبناني يشكّل ضمانة لصدّ موجات التطرف الديني، وبالتالي فالدروز يشعرون اليوم أكثر من أي وقت مضى بانتمائهم إلى هذا المكان فليس لهم مكان آخر. وهذا أساسي في تفكيرهم فالتوازنات اللبنانية ضامنة أساسية والدولة اللبنانية ضامنة لهذا الشيء. على المستوى الرؤيوي البعيد، يرى الدروز في الطوائف الأخرى أن التيارات السياسية التي صعدت بقوة وكان لهم معها اشتباكات، هي موجات سياسية مرحلية وليست موجات جارفة للتركيبة اللبنانية برمتها. ومن هنا كان للدروز مواقف مختلفة منها، فالدفاع عن منظومة الطائف الذي يعتبر ميثاقاً وطنياً تاريخياً أساسي، هو موقف طبيعي للدروز الذين يعتبرون هذا

الاتفاق إطار البقاء لهم. هناك تعاطف كبير مع المقاومة فالدروز يعتبرون أنفسهم تاريخياً مقاومين للظلم، لكنهم يعتبرون أن ما يفيض عن حاجات مشروع المقاومة إلى توظيفات إقليمية كبيرة أو إلى روحية هيمنة على الدولة هو أحد التحديات، لكن هذا التحدي لا يواجه بمنطق الذهاب إلى حروب داخلية جديدة بين الجماعات الطائفية.

ومن هنا فالدروز إجمالاً، ورغم وجود ما أسميناه "شطحات" بينهم، ميالون إلى إعادة إنتاج حالة تسوية واقعية بين اللبنانيين في خدمة مواجهة هذه الموجات. وبرأيهم، لا يمكن معالجة هذا النوع من الموجات بالعنف فقط، ولا يمكن معالجته بالمزيد من الحرب، فهم ميالون إلى القول إنّ على اللبنانيين أن ينتجوا مرة أخرى تفاهمات داخل هذا الكيان اللبناني لا يكون عدائياً تجاه الآخر داخل هذا الكيان، للوصول إلى معالجة هذا النوع من الظاهرات التي هم غير مسؤولين عنها ولا اللبنانيين أيضاً. نعم هناك قلق موجود من الموجات الدينية، وفي وعي الدروز الجماعي، فإن هذا التطرف الديني يشكل تهديداً وتحدياً للجميع وليس للدروز وحدهم، وليس للدروز خطاب ديني مقابل لمواجهة الآخرين به، وهم لم يطوروا إيديولوجية خاصة بهم كما هو حاصل في الثقافتين السنية والشيعية.

طبعاً في هذا المجال هناك مشكلة أساسية يجب لفت النظر إليها، هناك فراغ ثقافي كبير وفراغ سياسي في الطائفة الدرزية وهو فراغ ملحوظ. هناك ارتباك الآن في التعبير عن هوية هذه الجماعة، لا يمكنك أن تستطلع موقف الطائفة الدرزية ثقافياً، فلا يمكنك أن تعرف موقف الدروز من هذه القضية الثقافية أو تلك. في السياسة هناك حالة فراغ إذ ليست الطائفة في حالة بلورة واضحة لخطابها السياسي فأكثرية مواقفها جزئية وظرفية لا تعبر عن رؤية وليست خطاباً متكاملاً، وهذا له علاقة بعدم وجود مؤسسات دينية وثقافية وسياسية. وهذه الظاهرة تطرح علامة استفهام كما لو أن موقف الدروز غامض مقابل وضوح في مواقف الطوائف الأخرى".

*** كيف يمكن حماية الاعتدال؟**

– "يمكن حمايته بالعودة إلى ما نسميه صياغة التسويات اللبنانية. فعملياً، منذ الإمارة إلى اليوم، وعلى الرغم من كل الشطحات والتطرف بالمعنى السياسي والفكري

والعسكري، فهذا المجتمع التعددي أثبت أن قوته هي في تضامنه وعيشه مع بعضه، ويجب إيجاد صيغة للاجتماع اللبناني مرنة ورحبة لا يكون فيها غبن وافتئات للآخر. يجب إيجاد حماية داخلية تستجلب حمايات خارجية وليس العكس كما يوحى. أنا ضد المنطق الذي يقول إن التسويات الخارجية ستحل المشاكل الداخلية. فالخارج دائماً يتطلع إلى مصالحه ومطامعه الأكبر من مصالحك. إن إنتاج تفاهمات داخلية شرط للاستفادة من الخارج وإلا تكون تغامر بالاجتماع السياسي اللبناني ونحن الآن في قلب هذه المغامرة".

